زعتر التل

أحمد عودة

زعترُ التّل

مجموعة قصصيّة

زعترُ التّل

أحمد عودة

الأعمالُ الكاملة (8)

الطّبعة الأولى: 1979

إصدرات رابطة الكتّاب الأردنيّين.

الطّبعة الثّانية:

دارُ الجيل العربيّ للنّشر والتّوزيع.

2022م.

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

تعريفُ بالكاتب:

هو الأديبُ الأردنيّ الرّاحل «أحمد عودة» من مواليد قرية إذنبَّة - الرّملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعدّ أحد أعمدة رابطة الكّتاب الأردنيّين، وأحدَ مؤسّسيها الأوائل، وعضوًا في اتّحاد الكتّاب العرب منذ عام 1982. احترفَ كتابةَ القصّة والرّواية ونصوصِ المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، ويعتبرُ من روّاد المشهد الثّقافيّ الأردنيّ فقد كانَ يرفدُ الصّحف والمجلات الأردنيّة والعربيّة بمقالات نقديّة أدبيّة، وببعض البحوث الفكريّة واللّغويّة.

تمَحوَرت أعمالُه الورقيّة حول القضيّة الفلسطينيّة بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كلّ مكان، ناهيك عن قضايا الأمّة العربيّة بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغتُه العربيّة بالجزالة السّلسلة كانعكاسٍ تامّ لمهنتهِ الّتي مارسها كمدرسٍ لها في مدارس القدس وعمّان حتّى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبيّ.

الأديبُ من أوائل الرّوائيّين العرب الّذين اتّجهوا لكتابة المسلسلات التّلفزيونيّة مواكبةً منهم لعصر الصّورة والصّوت، ومن الرّواد الّذين نقلوا اللّهجة الأردنيّة العاميّة والرّيفيّة والبدويّة عبر مسلسلاتهم إلى الشّاشات العربيّة.

هذا وقد مارس الكتابةَ الإبداعيّة طوال حياته قبل أن توافيه المنيّة في «حيّ الرّبوة- ماركا الجنوبيّة- عمّان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016م.

مؤلّفاته الورقيّة «الطّبعة الأولى»:

حين لاينفع البكاء- قصص- عمّان- مكتبة الشّرق-1973.

زعترالتلّ- قصص- عمّان- رابطة الكتاب الأردنيّين- 1979.

المنعطف- قصص بغداد- وزارةالثّقافة- 1980.

الولادة والموت- قصص- دمشق-اتّحادالكتاب-1982.

جمجوم- قصص- بغداد- وزارة الثّقافة والإعلام- 1982.

ساعات الصّفر- رواية- بيروت- دارالوحدة- 1983.

الفواصل- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب العرب- 1984.

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمّان- دارابن رشد- 1986.

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب

الفخّ- قصص- عمّان- وزارة الثّقافة- 1996.

الباشكّار- رواية- عمّان- دارالينابيع- 1996.

مسرحيّات:

الكنـــــز

أصـل المسألـة

شلّــة الأنـس.

أفلام تلفزيونيّة:

المريض

عذابـات حَلُّـوم

طلقـةُ الرحمـة

الانتظـار.

أهم المسلسلات المُتلفزة:

ويبقى الأمـل- باللّهجةالأردنيّة.

الفرح المنسي- باللّهجة الأردنيّة.

الحائـــــر- باللّهجة الأردنيّة.

حـارةالزيـن- باللّهجة الأردنيّة.

الريحانيـــة- باللّهجة الأردنيّة.

خط النهاية- باللّهجة الأردنيّة.

خـطالبدايـة – باللّهجة السّعوديّة.

الزمـــن دوّار- باللّهجةالسّعوديّة.

مرايـا الحـبّ- باللّهجة المصريّة.

هـذا قـراري- باللّهجة السّوريّة.

الأمانـي المـرّة- باللّهجة السّوريّة.

المُقدّمة:

صدَرت الطّبعة الأولى من هذه المجموعة ضمن إصدرات رابطة الكتّاب الأردنيّين عام 1979م، غيرَ أنّي لم أجدها إلّا بعد عامينِ من البحث وإلّا على رفوفِ (المكتبةِ الوطنيّة- عمّان). ولأنَّ التّعليماتِ تحتّمُ عدم تصوير العمل كاملًا داخل المكتبةِ أو إعارته؛ فقد اضطررتُ أن أذهب كلَّ يومٍ لتصوير عشر ورقات منه حتّى جمعته كاملًا وأعدتُ تحقيقَه مع نسخٍ مُبعثرةٍ أصليّةٍ وجدتها هنا وهنا.

تمتازُ هذه المجموعةُ بالصّورةِ الشّموليّةِ للحدثِ العام النّابعِ من داخل الشّخصيّة الواحدة، ففيها يختزلُ الكاتبُ صراعَ البقاءِ في أكثرِ من قصّة، وإليها يعودُ من فضاء النّص الكبير لينهي من خلالها ما استطردَ به وأشارَ من دفقاتٍ حسيّةٍ إنسانيّة موجعة.

أمَّا ذاكرةُ القلم فقد انعكست جليًّا على ذاكرةِ الأجيالِ المتتابعة، فهناك دومًا الأبُ الّذي يُسلّم رايةَ الشّغفِ ورائحةِ الأرض والزّعتر للابن، وهناك الابن الّذي يتشبّعُ دائمًا بنسيم البحر السّاكن في دمائهِ من قبل أن يراه، ليأخذك الكاتبُ بعد ذلك في جولةٍ قصيرةٍ أو متاهةٍ جدليّة حين يتحدثُ بلسان المغتصبِ للأرض.

يتحدّثُ عنه بتجرّد بيد أنّ هذا التّجرّدَ يعرّي جبنَه وأكاذيبَه الّتي نسجها على مدارِ سنواتٍ من الصّراع؛ قبل أن يزيحَ ستارةَ الحقيقةِ عن بعضِ الوجوهِ الّتي أضاعت هُويةَ سمرتها فلم تفلح الأصباغ

البيضاء بمنحها لونًا يتيحُ لها تبديلَ جلدها للأبد، أو حتّى لبعض الوقت.

وللمرأةِ وجوهٌ كثيرةٌ في هذه المجموعة؛ لكنّها لعبت دورَ الانتظارِ في أغلبِ القصصِ مع تفاوتِ المقصدِ منه؛ وتباينِ الحالة النّفسيّة لكلِّ حالة على الرّغم من (وحدة المغزى) في النّهاية، حتّى إذا سادَ القلقُ وتوالت النّقَلاتُ المكانيّة والزّمانيّة في المشهد الواحد؛ تسارع الصّراع التّساؤليّ والتّكهّنات الحالمةُ الّتي ستقودُ جميعُها المسارَ الدّراميّ إلى نهايات متشابهةٍ واقعيّة تُختتمُ بالموت.

الموتُ هنا لا يعني النّهاية مطلقًا، ولا بترَ السّلالة القصصيّة بما فيها من شخوصٍ وأحداث، بل أشبه ما يكونُ بالإشارة الذكيّة أنّ العطبَ في الصّراع على الأرضِ يصيبُ جزءًا من كلّ؛ غصنًا من شجرة؛ حجرًا من سلسلةٍ صخريّة؛ قطرةً من بحر؛ تغريدةً من جوقة جماعيّةٍ تعزفُ لحنَ الأرض الخالد لا يضيريها إن فقدت أثناء عزفها كنارًا أو حمامةً أو نسرًا أو بجعةً؛ أو نورسةً لا تعرفُ من الكرةِ الأرضيّة إن حلّقت طائرةً إلّا بقعةً واحدة تُدعى: فلسطين.

مظهر عاصف

خطُّ النّهايةِ

منذ أن نبتت المُستوطنةُ في خاصرة الجبلِ المُشرف على البلدةِ والجندُ يمطرونها بالعذاب. لم يُدهش لهذا أهلُها. ما أدهشهم حقّا أنّ ينسفَ المحتلّون حُجرةَ «الزّهّار» بعدما تبعثَرت أشلاءُ حماره الأدهم في قلب المستوطنة بانفجار لم يشهدوا مثلَه من قبل . طيلة شهرٍ أو يزيد من قبل الانفجار والبلدةُ تنامُ وتصحو وليس لها حديثٌ سوى الزّهّار. كيف اقتحم مضافةَ المختار وقال بلهجة متعثّرة وبلا مقدمات.

ـ يا مختار، زوّجني سعدة .

ضحك المختارُ طويلا حتّى استلقى على قفاه. قهقه الرّجال من حوله لهذه النّكتة. سعدة ابنة المختار وأحلى صبيّة في البلدة يطلبُها الزّهّار على تلك الصّورة الطّريفة المروّعة كأنّما يطلبُ شربةَ ماء؟! إنّه مَطلبٌ غريبٌ من رجل غريب لم يعرفوا له أصلًا ولا فصلا . كلُّ ما يعرفونـه عنه أنّه نزل البلدة مع الاحتلال ، بالضّبط في الوقت الّذي نبتت فيه المستوطنة في خاصرة الجبل. لم يروا ميّزاتٍ تفضّلُه عن حِماره الأدهم الّذي جاءَ معه. كلاهُما يحملُ الماءَ من النّبع إلى البيوت فتظلُّ النّساء كاسياتٍ عاريات بلا حرج.لا فرق بينهما ولا اختلاف سوى أنّ أحدهما يمشي على أربع وله أذنان طويلتان وذيل دائب الحركة؛ يبرطعُ كأنّما يركبُه عفريتٌ إذا ما امتطاه أحدٌ غير سعدَة الّتي يتحوّل إلى حمل وديع

تحت جسدها العَبل؛ يهزُّ ذيلَه بمرح وصاحبُه يصفّر بلغة يفهمها الحمار غايةَ الفهم.يقطعان النّهار بحمل الماء، وفي اللّيل ينزويان معا في حجرة واطئة معزولةٍ أسفل الجبل. يثيران بصحبتهما الدّائمة الشفقة،أمّا الزّهّار فيثيرُ من حوله السّخرية وفي أحيان الغموضَ، لذا فسذاجته الغالبة هي حتمًا ما دفعته إلى أن يقتحم المضافةَ على تلك الصّورة الطّريفة المروّعة طالبًا يدَ سعدة.

كفَّ المختارُ عن الضّحك مُكسِبًا وجهَه سماتِ الجدّ.

ـ هي لك يا زهّار . سعدة لك يازهّار.

قالها بلهجة جادّة ولكنّها مسنونة كحدِّ السّيف بالسّخرية. فهمها الزّهّار _يا للعجب_ أربدَ وجهُه وحدَّقَ إلى المختار بصمت ثمّ انسحب إلى حجرته الواطئة؛ حيث لا ينتظرُه غيرُ حماره الأدهم يقضمُ برسيمًا اعتادت سعدة أن تجود به كلّما أحضر لها الماءَ دون أن يقبض الثّمن.

هذه الحادثةُ هلهلت أحزانَ البلدة . طغَت ولو لوقت على الشّعور بالسّخطِ لتلك المستوطنة الّتي كشفت عورةَ أرضهم؛ وتصيبُهم بالأذى كلّما تعرّضَت لهجمة جريئة في اللّيل . تقتحمُ المجنزراتُ البلدةَ تمضغُ الأزقّة المُتربة. تهتزُّ الأبوابُ والنّوافذَ تحت ضرباتٍ مسعورة «اخرج يا كلب». ثمّ يساقُ الرّجال والفتيان إلى السّاحة الواسعة أمام مضافة المختار. يُؤمرون بالوقوف على رجل واحدة وأيديهم مرفوعة تهطلُ على رؤوسهم ضربات موجعة مغلولة.

لم يفلت رجلٌ أو فتى من الضّرب والسّجن والاعتقال خلا الزّهّار؛ يظلُّ طليقًا يروح ويجيء من خلف حماره الأدهم حاملا مثله الماء. يثير بثيابه الرثّة وسحنته الشّاردة سخريةَ الجند؛ يتركونـه يقطعُ السّاحة وفي كلِّ غدوة وروحَة تفرقعُ ضرطاتُ الحمار على مسامعهم وتحت أنوفهم؛ فيتحايلُ الرّجال على اليأس والألم بالضّحكات، يداخلُهم شعورٌ مُبهـــــمٌ أنّ الزّهّار لا يشاركهم مصابَهم وحسب بل ويجري سباقا مع شيء ما غير منظور؛ ينطلق معه من البداية مسرعًا وفي عينيه يتفجّر تصميمٌ على أن يبلغ خطَّ النّهاية مهما كلّفه الثمنُ؛ ليرفـعَ يده بعلامة النّصر هناك.

مرّة واحدة عاملَ الجندُ الزّهّار معاملةَ الرجالِ إثرَ نسفِ سيّارةٍ مُحمَّلةٍ بالذخيرة؛ على طريق المستوطنة. دخلَ السّاحة حينها يمشي الهوينعلى غير عادته والجندُ يدفعونـه بالبنادق. ضحكوا رغمًا عنهم، فهذه أوّل مرّة يرونه يُعامل كالرّجال، وهي الأولى الّتي يُرى فيها بغير الحمـار، ولكن ما أدهشهم أن يبدأ به الجنودُ التحقيقَ والضّربَ والزّعيقَ.

- كم رجلا كانوا؟أين ذهبوا؟ كم قضوا عندك؟

ظلَّ ثابتًا كالطّود، يحدّق فيمن يضربونه دون أن يطرفَ له جفن. أدهشهم ثباته مع يقينهم أنّه لا يدري عمّا يتحدث هؤلاء، ولا لمَ ساقوه إلى السّاحة يضربونه بشراسة. فهو قطعا لم يسمع _مجرّد سمع_ بالمستوطنة ولا بالرّجال الّذين يمرّون بالبلدة إليها يلكزونها بضرباتٍ موجعة.

لا صلة له حتمًا بما حدث ويحدث. لقد نزل البلدة كما جاء إلى الدّنيا خطأً. ليس هناك ما يعرفه سوى الطّريق الواصل بين البلدة والنّبع. حتّى الجلسات في المضافة لا عهدَ له بها، ولولا ما يتفوّه به أحيانا من مقاطعَ مبتورةٍ لظنّوه مثلَ حماره الّذي لا ينهقُ إلاّ في القليل النّادر. من أين إذن تكون لـه صلةٌ بما حدث ويحدث؟

أخرج صمتُه واحتمالُه الجنودَ عن أطوارهم. جعلوا يزعقون بهستيريّة والهراوات تتوالى عليهِ صاعدةً هابطة كزخّات المطر.

ـ قل أسماءهم ياكلب. أسماءهم.

انهالت الضّربات على رأسه الشّامخ. سقط الرأسُ على الصدرِ وسالَ الصدرُ على الرّكبتين، وتهالكت الرّكبتان على الأرض طويلا قبل أن تهوي ضربةٌ صاعقة على الظّهر؛أجبرت وجهَه أن يفترشَ الأرض يسقيها بدم أحمر دافئ . خُيّلَ إليهم أنّه لن ينهض أبدا ولكنّه وسط دهشتهم نهضَ وراح ينقلُ الماءَ مع الحمار. وكلّما مرّا في السّاحة فرقعت الضرطاتُ على مسامعِ الجند وتحت أنوفهم.

باتوا على يقين مِن أنّ الزّهّار هو من يوحـي لحماره بالضّرط يشاركُهم في مصابهم على طريقته. يعرفون مبلغَ حبِّ الزّهّار لحماره ومدى طواعية هذا له. يكفيه أن ينطق بكلمة مبتورة أو يصفّر أو يطرقع بأصابعه وشفتيه حتّى يستجيبَ الحمارُ بحركاتٍ وأفعال على نحو مدهش. كلُّ صوت يطلقُه له ردّة فعل فوريّة من الحمارِ لذا يحبُّه أشدَّ الحبّ. لم يروه ولو مرّة واحدة يضربه .

في الوقت الّذي يضربون نساءهم لأتفه الاسباب لا يلوي حتّى ذيلَ حماره، حتّى ولا يركبه. يعلّلُ هذا وبلغته الخاصّة.

ـ أبو العزّ لم يُخلق للرّكوب.

وإذا ما أراد أحدهُم تكذيبَ زعمه يظلُّ ساكنا ينظرُإلـى صاحبه بثبات كأنّما يستشيرُه بما يفعل، حتّى إذا ندّت عنهُ حركةٌ أو صوت وثبَ الحمارُ فجأة يرفسُ ويبرطعُ حتّى يُلقي ما على ظهره من حملٍ دخيل، ثمّ يهرول إلى الزّهّار ويضعُ رأسَه بين يديه طفلًا وجدَ أمّه بعد طول غربة وضياع .سعدة دون غيرها تعتلي الحمار في البيت. يهزُّ ذيلَه من تحتهـا فيما الزّهّار يصفّر له بمرح . حين ضربَه المختارُ علـى رقبته بلطفٍ وقرَصَ أذنه قائلا.

ـ وتقول لم يُخلق أبو العز للرّكوب .. ها؟!

فهم مرمى كلامه وضحك ببله وتأتأَ.

ـ سعدة لا تركبه، إنّها تناغيه. ظنّوا في البداية أنّه من يوحي لحماره بالخضوع لسعدة لقاء ما توليهما من عطف؛ ولِمَا تجود به من برسيم كلّما حملا إليها الماء. استبعدوا أن يفكّر مجردَ تفكير بحبِّ سعدة إلى أن اقتحم المضافةَ على تلك الصّورة الطّريفة المروّعـة طالبا يدها. حتّى ثباته في وجـه الجند علـى ذاك النّحو المدهش؛أرجعوه فيما بعد إلى بطولة مزيّنة غرضـه الساذج منها أن يكسبَ ودَّ سعدة، ثمّ الزّواج بها فيبلغَ خـطَّ النّهاية الّذي توهّموا أنّه يجري السّباق مع شيء ما ليرسمَ فوقه علامةَ النّصر.

امتصّت حادثةُ اقتحامه المضافة آخرَ قطرةٍ من إعجابٍ لثباته واحتماله الضّرب. نسوا كلَّ شيء عنه غير واجب السّخرية لمَا أثارَه الفعلُ الغريبُ من رجلٍ غريب. ظلّوا يتندّرون به طيلةَ شهر أو يزيد إلى ما قبل الانفجار.

استيقظت البلدةُ عند الفجرِ على صوتِ انفجار مريع؛ زُلزِلَت له البيوتُ وثغَت الماشيةُ وهرّت الكلاب مخفيةً رؤوسَها رعبًا في التّراب. احتشد النّاسُ أمام النّوافذ يرقبون بفرح ألسنةَ النّار تلحسُ المستوطنة برعونة وشبق. موجةُ الفرح طغَت على الخوف ممّا سيحدثُ في العادة من ضرب وسجن واعتقال. حقيقةٌ واحدةٌ رفرفَت مُغرّدة:إنَّ انفجارَ اليوم أروعُ ما حدث. ضربةٌ ماهرة ربّما خطّطَ لها ألفُ رجل ونفَّذَها ألفٌ آخرون.

ثارت زوابعُ من عطَفاتِ الجبل. انجلت عن أرتالٍ من المُجنزرات تقبضُ على عنق الفجر. تخنقُه . تجزُّ ناصيتَه وتلقيه في رحم اللّيل من جديد. لم يدهشوا أن يُنبِتَ كلُّ شبرٍ من الأرض مجنزرةً تلوكُ ما يصادفها بنهمِ وحشٍ جائع. ما أثار دهشتَهم أن تظلَّ هذه المجنزرات تهدرُ بضراوة حتّى تتوقّف أمام حجرة الزّهّار، تنسفها وتتطايرُ أشلاؤها ريشَ فرخٍ مزَّقته مخالبُ صقرٍ غادر.

«ما دخلُ الزّهّار فيما حدث؟» سؤالٌ واحد اعتمرت به البلدة عِمامةً سوداء. لم يجد أهلها تفسيرا لما حدث غير أنَّ المحتلّين فقدوا صوابَهم فباتوا يضربون كيفما اتفَق، لا يهمّهُم مَن تصيب الضّربات. «لو هم انتقموا مِن طفلٍ رضيع أو من عجوز شمطاء

أو حتّى من كلبٍ أجرب؛ لكان لما فعلوه حكمٌ آخر، معنى آخر. أمّا أن يكونَ الزّهّار موضعَ الانتقام فهذا ما يثيرُ الدّهشةَ حقًّا والعجب. ليس له صلةٌ من قريب أو بعيد بما حدث. حقّا يبدو غامضا أحيانا ولكنّ سذاجته هي الغالبة، وديع تأكل القطّةُ عشاءه... خالٍ من الفضائل لا يُميّزه عن حماره شيءٌ سوى أنَّ هذا يمشي على أربع وله أذنان طويلتان، كلاهما أخرس لا يندُّ عنهما صوتٌ إلاّ في القليل النّادر. من أين إذن تكونُ للزّهّار صلةٌ بما حدث ويحدث؟».

اقتحم الجندُ المنازل. لم يُرَوا غاضبينَ ولا مسعورين كهذه المرّة من قبل، ليس على أفواههم غير «أين ذلك الكلب؟ أين الزّهّار؟». لم يصدّقوا أنّه وراء ذلك الانفجار الهائل، وأنّه السّببُ في سُعارِ الجنود وفي هذه المُجنزرات الّتي تنذرُ بالموت كلَّ مَن ولِدَ وكلَّ من لم يولد بعد. لقد اعتادوا هذا مرارا من قبل، ولكن هذه المرّة تفوقُ سابقاتها.

إنَّها بحجم الانفجار الّذي لا شكَّ أنَّ ألفَ رجلٍ خططوا له ونفَّذَه ألف آخرون. أمّا الزّهّار فليسَ أكثرَ من دودةٍ تسعى إلى رزقها... دودةٌ ليس لها من هدفٍ سوى الرّكضِ مِن خلفِ حمارِأدهمَ فارهٍ.على مدى أيّام ثلاثة وضعَ الجندُ البلدةَ وأهلَها في غربال ضخم بهزّونه بشراسة علَّ من أحدِ ثقوبه يهبطُ الزّهّار حبةَ قمحٍ ضربَها سوسُ الخوف. باتَ الكلُّ على يقين أن سُعارَ الجند وبحثهم عن الزّهّار هذا البحث المضني لن يكون بلا سبب. تصفّحوا سطورَحياته معهم فلم يجدوا أنَّ سذاجتَه هي الغالبة. «

ليس ساذجا من نُسِفَت حجرتُه ومَن أوقفَ البلدةَ كلَّها على رجلٍ واحدة» .

لم يُعثر للزّهَار على أثر. حمارُه فقط وُجِدت أشلاؤه مبعثرةٌ في قلب المستوطنة. تلاشى فقاعةَ صابون مُضحّيًا بأعزّ ما يملك. حماره الأدهم الفاره. أيقنَ أهلُ البلدة أنَّ الزّهّار من أوحى لحماره بالذّهاب إلى المستوطنة وحيدا؛ وربّما كان مِن خلفه يصفّر صفيرًا خافتًا يفهمه الحمار غايةَ الفهم بعدما استعاض عن حمله الماء بالمتفجّرات.

عندها فقط أدركوا أيَّ خطٍّ كان يُمثّل النّهايةَ للزّهّار. يغذِّ الخطى مُسرعا ليبلغَه راسمًا فوقه علامةَ النّصر. ندموا على أنّهم تندّروا به، ولاموا المختار على أنّه سخر منه بتلك اللّهجةِ الجّادة المسنونة بالسّخرية كحدّ السّيف. لم يدروا إن كان عليهم أن يفرحوا لاختفائه على هذه الصّورة المُشرّفة أم يحزنوا، أما سعدة فظلَّ وجهُها حقلَ سنابل يموجُ بالفرح مؤكّدة بزهو أنّه سيعود.

عسكر وحرامية

إنّنيأعرفُ ذلك البيت، أعرفُه حقَّ المعرفة، فيه أطلقتُ أوّل صرخةٍ بين يديْ القابلةِ الضّريرة «نزهة». فيه تعلّمتُ الكلامَ صوتًا صوتًا. فيه حبوتُ ومشيتُ وتعثّرتُ وسقطتُ. فيه احتضنتُ أقواسَه الشّامخةَ يقومُ عليها سقفٌ مُقبَّبٌ منتفخٌ كأنّه امرأةٌ حُبلى في شهرها التّاسع. فيه حلمَت أمّي أن يولدَ ابني البكر «عايد» على يديها بعدما تخرّم الموتُ القابلةَ الضّريرة تلك. كانت لاتفتأ ترقبُ بطنَ حليمة وهو يتكوّر. تتحسّسه برفق وحنان. تضغط على نواجذها الهشّة.

ـ اكبر يا مصطفى . اكبر يا ولد. اكبر أيّها الشّقيّ .

وتُقدّم لي كوبا من الحليب السّاخن يطفو عليه الزّبد.

ـ سنسمّيه مصطفى هل تسمع؟ مصطفى.

أشربُ الحليب حتّى آخر قطرة وأمسحُ الرّغوة عن شاربي الّذي ما زال كزَغبِ القَطا. اتجشأ وأضحك.

ـ وما يدريكِ أنّه ولدٌ ذكر؟

تُمرّرُ يدَها على بطنِ حليمة. تُقَرّبُ أذنَها منه. تُحدّقُ إليَّ متحدية.

ـ ذكر وسنسمّيه مصطفى.

أبي أيضًا كان يناديني «أبو مصطفى» يبرمُ شاربيـهِ سرورا مِن أنَّ ابنَه الوحيدَ كَبُرَ وتزوّجَ؛ وهناكَ في الطّريق حفيدٌ سيحملُ اسمَه. ربَّما لهذا زوَّجَني قبلَ أن يغلظَ شاربي.

أوصاني في اللّيلة الأولى وهو يشدُّ على كتفي.

- ها، أريدُ دزينةً من الأولاد ، دزّينة.

لم أكن أعرف آنذاك أنَّ انفرادي بحليمة تحتَ سقفٍ واحد سيثمرُ جيشًا من الأولاد كما يشتهي أبي . عنَّفني لمَّا أبكرتُ بالذّهاب إلى الحقل، أقسمَ بالطّلاق على أن أتـركَ المحراث.

- كيف تتركُ عروسَك في يومها الأوّل؟ ألا تخجلُ مِن نفسك؟

عدتُ إلى حليمةَ ولكنّي لم أستطع نسيانَ وجهـهِ الطّافح بالعَرق. مسكين، لم ينسَ أبدا أنّه لم يُنجِب غيري مـن الذّكور . كان أساه يبلغُ الذّروةَ حين يُسرّحُ بصرَه في الأرض.

يتنهّدُ بحرقة.

- لو كان لي ولدان أو ثلاثة؛ إذن لارتحتُ من هذا التّعب. ثمّ لا يلبثُ أن تفترشَ وجهَه السّعادةُ حين يرى الأرض تتشقَّقُ عن سيقانِ القمح،أو وهـو يعبّئ الأكياس من البيدر بقمحٍ أصفر. يفتلُ شاربيه ويربت على كتفي بزهو.

ـ انظر يا ولد إلى نهاية التّعب. انظر إلى هذه الأرض، هل ترى أجمل منها؟

ثمّ يرسلُ بصقةً إلى الخواجا «داود» حيثما كان؛ ويلعنُ كلَّ مَن يفكّرُ بالسّقوط تحت إغراءِ المال؛ فيبيع ولو جزءًا يسيرًا من أرضِه ليسكتَ فمَ الطّمع. يسترخي تحت شجرة لوز أوزيتونةٍ ظليلة.

ـ تعال يا ولد استحم في هذا الظلّ.

كان لا يخطئُ في التّعبير عن مشاعره. لذّةُ الجلوسِ تحتَ الشّجر كما لمستُها أفضل بكثير من الاستحمامِ في البئرِ الغربيّة ذات الدّرجات الخمس. الجلوسُ هناك يمتصُّ التّعب ويزرعُ الرأسَ بألفِ حلمٍ جميل. الزّرعُ والخصبُ والبيادرُ العامرةُ والزّيتُ السائلُ ذهبًا أصفر، ثمّ الزّواجُ من حليمةَ وإنجابُ دزينةً مِن الأولاد أنثُرهم في الأرضِ؛ بعضُهم يقتلعُ العشبَ والبعضُ يشذّبُ الأشجارَ، وبعضُهم يتربّصُ بالعصافير،وآخِرُ النّهار تتوجّه الأسرةُ بكمالها وجلالها إلى البيت ذي الأقواس الشّامخةِ والقبّة المُنتفخةِ.

إنّني أعرفُ هذا البيت حقَّ المعرفة. حقًّا لقد تراصّت البيوتُ من حولِه وارتفعَت سامقةً مشرّعةَ النّوافذ ولكنّه البيت. ها هي ذي أقواسُه الشّامخةُ تنوءُ بحمل قبّتَه الحبلى. لم يُنسني فراقُ عشرين عامًا هذا البيت. لقد أطلقتُ فيه أوَّلَ صرخـةٍ بين يديْ القابلة الضّريرة نزهة. فيه تعلّمتُ الكلامَ صوتًا صوتا. فيه حبوتُ

ومشيتُ وتعثّرت وسقطت. فيه كان من المُقدّر أن يولد ابني البكرُ وكلُّ أولادي لو لم يمزّقنا سيفُ أيّار القاطع.

قال لي أبي في تلك اللّيلة الحالكة والناس يخطفون المتاعَ ويهربونَ أفواجًا بعكس البحر.

ـ اذهب يا بنيّ بزوجك، اذهب.

ضمّت أمّي حليمة وقبّلَت بطنَها. حين نظرت إليّ كانت عيناها تسبَحان في الدّموع.

- انجُ بابنك يا بُنيّ. إنّهم يبقرون بطونَ النّساء. اليهود يبقرونَ بطونَ النّساء.

رفضتُ أن أترك البيت. ترقرقَ الدّمعُ في عيني والدي.

هجَم عليَّ يلثمُني ثمّ دفعني بغِلظة.

ـ قلت لك اذهب.

تمدَّدَ على المِسطبة قائلا بحزم.

ـ أمّا أنا فلن أتركَ البيتَ والأرضَ مهما كان الثّمن.

تربّعت أمّي بجانبه. حدجَت بطنَ حليمة بيأس. أطبقَت يدٌ وحشيّةٌ عليه. مزّقته. انزلق منه «مصطفى» بغـير صراخ . لطمتُ وجهي. دفعتُ حليمةَ فتدحرجت أمامي كرةً مُهترئةً من

المطّاط.انضممنا إلى من كانوا يمشون هرولة؛ ينعاهم رصاصٌ وصراخُ صبيةٍ يجلدُهم سلطانُ النّوم .

كانت الأرضُ ليلتَها تئنُّ تحت أقدامٍ عمياء، والسّماءُ كدرةٌ مُتجمهةٌ تفرشُ الطّرقاتِ والحقولَ بالفحم. لا أدري كم مشيتُ بحليمة. ليلة، ليلتين، عشرا! المهم أننا انتهينا إلى خيمةٍ بقرنين عظيمين. المهم أنَّ أمّي لم تعد تتحسّس بطنَ حليمةَ وتقدّم لي كوبا من الحليب السّاخن يطفو عليه الزّبد. ما عاد أبي يدعوني «أبو مصطفى» وهو يركضُ من خلف المحراث؛أو حينَ يناديني لأستحمَّ بشجرة زيتون ظليلة.

تعلّمت بالتّدريج كيف أنضمُّ إلى الرّجال في المخيّم، نلعب السّيجة والضّامي ونحلم بالعودة على أجنحة الطّير؛ فيما الأولاد مبعثرون على التّراب الأعزل يعفّرون به رؤوسَهم، يعجنونه، تصنع الصغيراتُ منه عرائسَ، والصغارُ كراتٍ صغيرةٍ يلعبون بها حين تجفُّ عوضا عن كرات الزجاج. وجوهُهم شاحبةٌ شحوبَ فراخٍ جفتَها أمّها. يثيرُ منظرُهمفي نفوسنا نحنُ الكبارُ الأسى بيدَأنّا نواظبُ على اللعب؛ والحلمِ بالعودة على أجنحة الطير.

نسيتُ حليمةَ ونسيتُ بطنَها إلى أن جاءتني جارةٌ عجوزأضحت قابلةً للمرّة الأولى.

- مبروك مصطفى.

أغمضَ الفرحُ عينيه وانزوى في ركنٍ مهجور. حين طلبت منّي حليمة أن آتي لها بسمك طازج ابتعته من شبّاك الصيّادين في بحر يافا الجميل. زغردت أمّي وقبّلتني بفرح.

- مبروك. سأصبح جدّة.

وقهقهَ أبي وهو يستلقي تحتَ شجرةِ لوز.

- آه، لم تخيّب رجائي فيك.

وعبَثَت أصابعه طويلا بشاربه قبل أن يمتصَّ رحيقَ مشاعرهِ الدّافقة بالسّرور.

- ستدع لي أمرَ تربيته، سأجعلُ منه كما جعلتك رجلًا وأنت بعدُ في السّادسة.

دسست يدي في جيبي. أخرجت ما فيه من قروش، دفعتها إلى العجوز فتراجعت مذعورةً تستعيذُ من الشّيطان. أعدتها إلى جيبي وصرخت بلا وعي.

- اسمه عايد... عايد.

قالت حليمة وهي تلقمُ الصّغيرَ ثديها.

- انظر، إنّه يشبهك.

لم أنظر. رمتني بنظرةٍ عاتبة.

- لمَ لمْ تسمّه مصطفى؟ سيغضبُ عمّي لو عَلِم.

أطرقتُ برأسي طويلا. تساءلتُ إن كان أبي قد ظلَّ صامدًا في وجهِ الخواجا داود ولم يبعه الأرض،أو إن كان هذا قد استولى عنوةً عليها بعد الاحتلال، آه الخواجا داود!

أيقظني أبي . تركتُ الفراش مُتبرّمًا لانقطاع الحلم . كنت أركضُ خلفَ حليمة. تعثّرت وسقطتُ فارتميت بجانبها ألهث. مددتُ يدي إلى صدرها، ضربتني برفق. فتحتُ عينّي على سبّابةِ أبي وهي تداعبُ أنفي كي أنهض. أخرجتُ البغلَ من الحظيرة.

هناك عند البوّابة رأيتهُ يتحدّث إلى رجل أشقر ذي أنف مُدبّب وعينين زرقاوين بغيضتين. سمعتُه يرطن بكلام غريب تخالطه عربيّة مفكّكة فيما أبي يهزُّ رأسَه استنكارا. تناولَ رسنَ البغل من يدي وقفزَ على ظهره تاركًا الرّجل يرطن بلكنته الغريبة. ظلَّ طيلة الطّريق يلعنُ ويسبّ.

- اليهوديّ الكلب، يراودني عن أرضي، الكلب.

لم ييأس ذلك الرّجل الّذي عرفتُ أنّه يدعى الخواجا داود. ظلَّ يتردّدُ على البيت والأرض يفترسُها بعينيه، ينطلقُ من تل أبيبَ

يتشمّمُ الأراضي الدّسمة. كان أبي يكرمُـه غايةَ الكرم، ولكن حين يأتي على ذكر الأرض يكفهرُّ وجهُه وبالكاد يكبحُ جماحَ نفسه. يقول بهدوء ما استطاع.

ـ ياخواجا لقد تغدّيت وشربت القهوة. مع السلامة.

يمضي وعلى ثغره ابتسامة مَن يرى أنَّ أملَه سيتحقّقُ ذات يوم.

تكوّمتُ على التّراب داخل الخيمة أتسمّعُ لأنفاسي وقدغدَت حشرجة. ابتسمت حليمة مجاملة.

ـ اسم عايد جميل أيضًا.

هززتُ رأسي بلا كلام. خلتُ أنّي سأنفجر فتمزّق شظاياي الخيمةَ ويموت ولدي بالانفجار.

قالت وهي تعتصرُ ثديَها لتُسكِتَ همهمةَ الصّغير الجائع.

ـ هل تذكر؟ كنّا دائما نقول إنّه ولد... انظر ما أجمله!

توسَّدتُ ذراعي أحصي الثقوبَ في الخيمة . قلت لهـازاجرًا.

ـ الأرضُ هناكَ كانت بحاجة للأولاد،أمّا الآن، أمّا هنا فلِمَ ننجبهم؟ للجوع والمرض أم للتّراب والعَفن؟

انتحر السّرورُ على وجهها. طوَت ثديها وأجهشت بالبكاء. كانت دموعُها خلافَ ما توقّعتُ زيتًا أجَّجَ نارًا تضطرمُ في صدري منذ زمن. لم أندم أني زعقتُ بها بل تقتُ إلى الصّراخ حتّى أنفجر.

طيلةُ عشرينَ عاما _إلى ما قبلَ حزيران_ رزقت بأولاد ذكور وبنات دون أن يتغيّر الحال. لقد استعضتُ بالخيمة ذاتِ القرنين حجرةً من الطّين الأسمر؛ ولكن لم يتغيّر الحال. حتّى الأمل بالعودة اضمحلّ، طردته الرّغبةُ بموت عاجل يُنهي حياةً تافهة.

ها هو البيتُ بأقواسٍ شامخةٍ وقبّة منتفخةٍ لم تضع حملَها بعد. ها هو البابُ الضّخم أكادُ أرى بصماتي عليه. لم أنسَ رغم أنَّ الشّمسَ خلال عشرينَ عاما فقدت استدارتَها؛ ورغم أن القمرَ عاد الى مدرسة ليليّة يتعلّمُ كيفَ يعودُ كما كان بدرا. لم أنسَ.

امتدّت يدي مرتعشةً تقرعُ الباب. امتدَّ أمامي عمرٌ كامل من الغربة والوحدة واليأس. انفتحَ بصرير ناعم صلصلت له أجراسُ صدري.أطلَّ وجهٌ سحبته من قاعِ الذّاكرة. إنّه الخواجا داود. رغم هذه البزّة العسكريّة وهذه النّجـــــوم والنياشين،إنّه الخواجا داود. لم يتغيّر. بل ربّمـا غدا أسنَّ سنًّا.

لم يظهر عليه أنّه يعرفني. لم أدهش. في المخيم أرى الوجوه تشيخُ باطّراد. تتغيّرُ في الصّبح والظّهروالمساء. لكلِّ فردٍ هناك وجوهٌ بلا عدٍّ أو حصر.

أنا أيضًا حين أرى وجهي أنكره. أتساءل متى رأيته، أين رأيته؟ حليمة أيضًا تغيّرت. تغيّرت كثيرا. ليست تلك الّتي ركضتُ خلفها

في الحُلم. ليست من دخلتُ بها أوّل ليلةٍ فلوثتُ منديلي الأبيض بدمٍ أحمر زغردَت له أمّي وأمّها وبقيّةُ النّسوة. كلُّ شيء تغيّر. أمّا هنا؟ لا أدري.

المهم أنَّ الخواجا حشرَ الزّمنَ في قُمقمٍ وختَمَ عليه بالرّصاص. بات فتيّا أكثر ولكن ما زال في عينيه الخبثُ القديم. الحقدُ القديم. زوى ما بين حاجبيه. أنكرني تماما. تحسّستُ الباب. احتضنتُ الأقواس... انداحت في صدري موجاتٌ حنينٍ مُبهم. اقتحمت رأسي أصواتُ صبيةٍ يطاردون صبيًّا منهم؛ يطلقونَ عليه الرّصاص من بنادق ومسدّسات لامعة. يحاولُ أن يحتمي بالأقواس، تنهالُ من حوله الطّلقات. يرتجفُ رعبًا. يرفعُ يديهِ مستسلمًا فيقتادونه إلى الخواجا الّذي كان يضحك.

ـ لقد ألقينا القبضَ على هذا المخرّب.

ربَتِ على ظهرِهم ونقدهم مبلغًا من المال فانطلقوا يواصلون «اللّعب» تزفّهم ضحكةٌ نشوى اخترقت عظمي سكينا مُرهفةَ النّصل.

ركلتُني عبرَ البوّابة. سرت أغذّ الخطى مُفكّرا: كيف أنتشل أبنائي من التّراب وأعلّمهم هذه اللّعبة الّتي رأيتها حولَ البيت... بيتنا؟!

الوعد

ثَمَأبو الفضل يدي وقال.

ـ وداعا أبي.

ألصقتُ فمي بصفحةِ وجههِ، كان دافئا حنونا وذا رائحةٍ أعرفُها منذ عشرين سنة. إنّها رائحةُ أبيه صديقِ العمر ورفيقِ السّلاح. قلتُ وأنا أدحرجُ صخرةً أغلقُ بها منابعَ الدّمع.

ـ بل قل إلى اللّقاء.

حاولتُ للمرّة المئة أن أثنيهِ عن ركوب البحر وأن ينضمَّ إلي.

هزَّ رأسَه مُمانعًا وتمتَمَ في خشوع.

ـ إنّه بحرُنا. يعرفُني كما يعرفُ أبي.

طوّقني بذراعيه ورجاني ألّا أبتئِسَ مُقسِمًا أن سيكونُ بانتظاري عند الجُرفِ الصّخريّ على شاطئِ عكّا؛ حين أكونُ قادمًا مع الرّجال من البرّ. تخلّص من يدي ولوّح لي بذراعيه وهو يمضي في مُقدّمة الرّجال. ساروا نحوَ البحر خطًّا واحدًا يلفُّهُم ليلٌ وصمتٌ وذكريات.

مرّة أقسموا أن يجعلوها في حلاوة الشّهد. كانوا ثلاثة وأبوالفضل قائدهم. مع أنّه أصغرُهم سنًّا كان قائدَهم.

ـ فتى لا تنقصُه الشّجاعة والحماس.

بهذا ردَّ قائدُ الفصِيل على المُتخوّفين من مَصير هذه الرّحلة. اقترب القائدُ منّي يذكّرني بموعدِ الرّحيل. قلتُ بأسى وأنا أتمنطقُ بالرّصاص.

ـ هذا الفتى أخذ عن أبيه الشّجاعة والعِناد.

ـ لا تنكر أنّك علمتَه أشياءَ كثيرةً مُحبَّبَة.

نشَّ الماءُ لضربِ المجاذيف. لم أستطع منعَ دمعتين من الانحدار انسابتا إلى فمي بمذاق مالح ملوحةِ البحر.

تحوّلتُ إلى الرّجال لأشغلَ نفسي ولأغذّي حماسَهم«هيا بنا».

كان علينا حسبَ الخطّة أن نديرَ ظهورَنا للبحر مَسيرةَ نصفَ ساعة بالسّيارةِ؛ ثمّ نواجههُ سيرًا على الأقدام لنلتقي في الفجر مع القادمين من البحر عند جرفٍ صخريّ أعرفُه تمامَ المعرفة، بل أنا مَن حدَّدَه. لم يمانع القائد.

ـالمهم أن نضربَ الهدف.

قلتُ بلهجة الواثق.

ـ سأصلُ برجالي في الوقتِ المُحدَّدِ عن طريق البرّ.

زحفَ أسامة أبو الفضل على يديه ورجليهِ حتّى جلسَ بيني وبين القائد. ضربَ على صدره باعتداد.

ـ أنا من سيركب البحر إذن؟!

تحوّلتُ إليه فزِعًا. تلاقت عيوننا في نظرة طويلة مُتوترة. لمحتُ في عينيه تصميمًا لا يقبلُ المُساومَة والنقض. سبقني القائدُ إلى القول.

- لا بأس. ستركب يا «أبا الفضل» البحر.

طوتني موجةٌ عارمةٌ من تأنيبِ الضّمير. أنا المسؤولُ عن تحديد الموقع. كثيرًا ما أخبرتُ أبا الفضل أنَّ ذلك الجرفَ الصّخريَّ كان مخبأَنا المفضل؛ نلتجئُ إليه أنا وأبوه بعيدًا عن عيون الإنجليز كلّما هاجمتنا عصاباتُ اليهود. لم تمنعني الذّكرياتُ حلوُّها ومرُّها مِن الحنين والعودة إليه.

نسيتُ أن لأبي الفضل مثلُ هذه الذّكريات، وأنّه يحكي عن أبيه كأنّه رآه ويتغزّلُ بالأرض كأن لم يطرد منها وهو ابن عامين، تنامُ في عينيه نظرةٌ حالمةٌ من الشّوق يتوقُ إلى اليوم الّذي يتاحُ له فيه أن يغسلَ قدميه بالأرض؛ وبتلك البقعةِ العزيزةِ الّتي نام فيها أبوه للأبد؛ قبل أن يغمضَ عينيه لتظلَّ ابتسامتُه متوهّجةً وشمًا أخضرَ لا يزعزعُه الموت.

كان لديه إحساسٌ دائمٌ بأن سيُقتل قبلي. حاولت مرارًا أن أنصحَه بالحذر والتّفريق بين الشّجاعة والاندفاع . كان يهزُّ كتفيه ويمضي إلى البحر يجلجلُ صوتُه.

ـ ومَن ذا الّذي يضمنُ لي الحياةَ إن أنا جَبُنت؟

ثمّ يعودُ على عقبيه. يمسكُ بكتفي يهزّني.

ـ أسامة ابنُك كما هو ابني. ضع هذا في اعتبارك دائما.

يغرسُ ذيلَ قمبازِه تحت الحزام، ويلصقُ البندقيّةَ القديمة إلى صدرِه مُدمدمًا.

ـ دعني أرى هؤلاء الخنازير الّذين يحملُهم إلينا البحر.

ألحق به حَذرًا أتمنى لو أنّي مثله لا أهاب شيئا. كان يعشقُ الموتَ بقدر ما أحبّ الحياة. لعلعَ الرّصاص من كلِّ جانب. رأيته يجثو على ركبتيه طويلا، يؤجّل السّقوط، يُطلقُ الرّصاص ضاغطًا على أسنانه «الكلاب» ويضربُ على البندقيّة القديمة بطيئةِ الطّلقات. «هيا يا ملعونة هيا ياكافرة». تخشّبت يداه. هوى رأسُه على صدره وناخ جسدُه الضّخم على الأرض. حملتُه بين ذراعي وانزويت به في الجرف الصّخريّ. أسندته إلى صدري ودمه الساخن يُخضّب قميصي. همس بصوت مُتحشرج.

ـ أسامة أمانتي عندك. عدني بأن تربّيه كما كنتُ أشتهي.

قلت وأنا أبتلعُ الدّموع.

ـ إن عزَّ الماءُ سأسقيه ماءَ عيني.

أغمضَ عينيه ولكنَّ ابتسامتَه ظلّت وشمًا أخضرَ تستعصي على الموت. خطفتُ بندقيتي وانطلقتُ مُتمنّيًا أنّ أموتَ اللّحظة. موتُه على تلك الصّورة الجليّة علّمني أن ألقي الحياةَ من خلفِ ظهري نواةَ تمر. موتُه الجليلُ علّمني أشياءَ كثيرةً نقلتُها إلى ابنه الصّغير على مهلٍ؛ وأنا أراهُ يترعرعُ بين يديّ لحظةً بلحظة. كان يداعبُ ذقني بيديهِ الصّغيرتين يسألني بإلحاح.

ـ هل كنتَ تحبُّ أبي لأنه بطل؟

أهزُّ رأسي بمعنى نعم وأقبّلُه . فيضرب على صدرهِ ويصيح.

ـ سأكونُ بطلًا مثلَ أبي.

لم أمانع أن ينضمَّ إلينا وهو بعدُ في العاشرة؛ بيد أنّي لم أفكّر قطّ أن أتركه يغيبُ عن عيني ولو للحظة واحدة.

إنّه أمانةٌ غاليةٌ أودعَها عندي أعزُّ صديق، أوفى صديق... كيف تركتُه يذهب؟! لو كان أبوه مكاني فهل يتركه؟! ربّما.

المهم كان عليَّ فقط أن أواجههُ بحزم حتّى يحترم رغبتي. لم يسبق له أن خالفني أو عصا لي أمرًا؛ فهل تراه كان سيفعل هذه المرّة لو أنا واجهته بحزم؟

تحتَ سقفِ اللّيل

منذُ أن قالَ المؤذّن «الله اكبر» ظُهرا وهي تقفُ أمامَ بيتها؛ ترصدُ الطّريق بعينين رافقتاها ستين عاما. في حياتها الطّويلة لم يحدث لها أن تأخّرت عن نداء الحقّ؛ حتّى يوم أن استقرّت رصاصةٌ يهوديةٌ في صدرِ زوجها. صلّت عليه بجِنان ثابت. لقد كان دائمَ الحديثِ عن غدرهم، وأنّ وجوهَهم أقنعةٌ تخفي لؤمًا دفينًا، وقد ماتَ على اعتقاده.

أكثر من ستّ ساعات مضت عليها واقفة، تتوقعُ في كلِّ لحظة أن تُنبِتَ الطّريق ابنَها. تراه من بعيد في كلَّ قادم، ثمّ يحزُّ قلبَها ألمٌ فظيع. تتصوّره مطروحا على الأرض، تنهال عليه عصيٌّ غليظة، تتخيّله مقيّدًا بالسّلاسل لا يستطيعُ حراكا؛ والجنود يرقصون من حوله سكارى.

- سنعيدُه بعدَ التحقيق معه.

هذا ما قالوه لها فأجبرت نفسَها على التّصديق. أخرسَت قلبَها الّذي حدّثها أنّ في عيونهم الغدرَ القديمَ، وارتاحت المدَّةَ الّتي سمَحت الطّريق فيها بظهور مؤخرة السيّارة؛ وهي تحملُ ابنها محاطًا بالجنود.

ولمَّا اختفَت نشبَت في قلبها أظفارٌ وحشيّة. أحيانا تُغطّي خيالَها بطبقةٍ من أوهام «لن يطولَ غيابُه» كان الجنودُ يبتسمونَ لهَا كيلا

تقلقَ. ولكنّ زوجَها كانَ يقولُ «أن أنامَ في غابة ملأى بالسّباع خيرٌ من أن أضعَ يدي في أيدي هؤلاء» وقد ماتَ على اعتقاده.

تتجمّعُ حواسُها في عينِها تمسحُ بهمَا الطّريق. تتكوَّنُ على المدى خيالاتٌ لها هيئةُ إنسانٍ واحد.« هل تراهم يكذبونَ ولن يعيدوه سريعا؟». تسمعُ عن السّجون الّتي أتخِمت بالشّباب. أمّهات كثيراتٌ ابتلعَت أبناءَهن السّجون.

« ولكنّها تعرفُ ابنَها هادئًا وادعًا، تأكلُ القطّة عشاءَه. ماذا عساه فعل؟ هل يكونُ لعودته المُبكّرة من المدرسةِ دخلٌ بما حدث؟حين سألَتهُ، لعنَ المدارسَ كلَّها، ثمّ قال بعد إلحاحٍ.

- القدسُ أورشليم، والقرآنُ تلمود.

تعجَّبت من كرهه المدرسةَ، وهي لو دخَلتها يومًا واحدا لفَهمتُ هذا الّذي يقولُه. حيَّرها غضبُه. أقبَلَت تمسحُ على شعرِه حتّى تحوَّلَ إلى قطٍّ أليف، فقال:

- يريدون أن يقلبوا تراثنا فلا نرى إلّا بالعيون التـي ألصقوها في وجوهنا.

ثمّ سحب نفَسه من ذراعيها، وصاح وهو يصفعُ الهواءَ بقبضته:

ـ قمنا بمظاهرة من المدرسة حتّى...

ضغطَ على أسنانه وقال بفتور:

ـ حتّى لو وصلنا الكِنيست قبل أن يفرّقونا بالرّصاص،ما الفائدة ؟

دقَّت على صدرها هلعًا.

ـ رصاص؟

كان في نيّتها أن توبّخَه لولا أن جابهها بنظرةٍ أسكتتها.

غدت مُفاعلا نشطًا تتضاربُ فيه أحاديثُ الأمّهات اللاّتي فقدَن أبناءهن لهذه الأسباب. ظلَّ قلبُها يدقُّ بعنف. يحشُدُ التحسُّبَ القَلِق. غدا للهواء صوتٌ كنعيب الغربان. التقطت أذناها هديرَ السيّارة العسكريّة. عن بعد رأتها تتوقف أمام البيت، سقط قلبُها في قدميها. حاولت أن تدفع ابنَها إلـى الهرب، تلقّاها بابتسامة ساخرة.

ـ هنا سجنٌ وهناك سجن؛ والفرق في الحجم ليس إلاّ.

وخرج إليهم برجليه قبل أن يدخلوا البيت إليه.

شعَرت برغبة مُلحّةٍ أن تبكي، لولا يقينُها بأنّ بكاءَها لا يُشرّف ابنَها ولا يرضيه. اكتفت بالوقوفِ تودّع السيّارة حتّى غيّبها المدى.

ستارُ اللّيل بدأ يهبطُ حاجبًا خيوطَ الشمس الغاربة. الطّريق تتمدّدُ كمارِدٍ خرجَ لتوّه من مَنجمِ فحم. ينفضُ رداءَه فينتشرُ غبارٌأسودُ يحجبُ عنها الرؤية. البيوتُ من حولها تنتصبُ خرساءَ كأنّها كتلٌ من رماد. تحومُ بروحها على البيوت. كلُّ بيتٍ يشغلُه ما يشغلُها «الانتظار».

الحالةُ واحدةٌ وإن لم يؤنسها في وقفتها أحد. الهواءُ يتحرّكُ بموجاتٍ نشطة. تتوالدُ نسائمُ لاذعةٌ تجلدُ إهابَها المُرهف، تمزّقُه، تتسلّلُ إلى صدرها، تقبضُ على أنفاسها، تسعل، يشتدُّ السّعالُ. يسقطُ طاقمُ أسنانها، تنحني بحثا عنه بيدين دبَّ فيهما الرّعاشُ، تمسك بجسم صلب. تقبضُ عليه، تعودُ إلى الدّاخل، تنظرُإلى ما في يدها على ضوء مصباح الكاز، تجدهُ عودًا مُحنيًّا جافا، تحسُّ برغبةٍ جارفة للبكاء تنفّذُها بحرقة.

ركبت خيوطَ الفجرإلى القدس، شرحت غرضَها لأكثر من واحد يسيرُ على عجل. أشاروا لها إشاراتٍ مُبهمة «لعلّهم مثلُها لا يدرون مكانَ وجود ابنها بالضّبط، أو أنّ عجلَتَهم تمنعُهم من التّركيز».

تنبّهت إلى أنّها مثلهم مشيُها هرولة. أخيرًا انتهت إلى بنايةٍ ضخمة بإمكانها ابتلاعُ بيوتِ القريةِ كلِّها. أمَامها حرّاس خلفَ مدافعَ رشّاشةٍ. تقدمت بخطى متعثّرة، تشمُّ أنفاسَ ابنها لاهثةً، تعبًا أوعطشا أو جوعا. اعترضتها ثلّةٌمن الجنود يتقدّمهم السّلاح.

- ماذا تريدين؟

- ابني اخذتموه أمس ولم تعيدوه.

قهقهوا معًا على نكتةٍ لم تُطرح، ثمّ سمحوا لها بالدّخول.

استقبلها ضابطٌ ذو نجوم لامعة بغاية الرّفق. قدَّمَ لها بنفسه مقعدا وأمرَ لها بفنجان قهوة. استأنَست. قال وهويتناولُ سيجارًا كبيرا من علبةٍ فاخرة.

- ابنك شجاعٌ ونبيل.

ثمّ وهو ينفثُ الدّخانَ من فيهِ على مهل.

- تصوّري أنه رفضَ أن يدلّنا على من حرّضوه وزملاءَه على التّظاهر والشّغب ضدّنا؟ ولدٌ نبيل.

ابتسمَ لها ابتسامةً واسعةً، زادَ أنسُها. «كان المرحوم في غاية القسوة والتطرّف حين مضى في عناده. يهودُ اليوم غيرُهم بالأمس، هذا واضح» قالت بحرارة.

- الله يحفظ شبابك. هذا من لطفك.

قال وهو يعضُّ على السّيجار:

- لذلك احترمناه غايةَ الاحترام.

طردَت كلَّ ما خامرها من ظنون. تمنَّت لو أنّها بحثَت عن طاقم أسنانها قبل أن تأتي، قالت كأنما تعاتب نفسها.

- لم أنم ليلةَ البارحة مُطلقا.

قلقل رأسَه وطقطقَ بشفتيه أسفًا:

- من كانَ لها مثلُ ابنك يعزُّ عليها النّوم، فخسارتـه لا تُعوّض.

وردت إلى قلبها إشاراتٌ غامضةٌ أخافتها. لسانُها سَكنَ كغصنٍ ميّت. فمُها الخالي يتمطّى فيه فراغٌ كذاك الّذي بين السّماء والأرض؛ تتدحرجُ فيه حبّات حنظل. تتذكّرُالعودَ الّذي التقطته في العتمة، تجيش دموعُها ، تتساقط دموعُها، يسارعُ الضّابط إلى تطمينها.

- لو كان عندي هنا لأتيتكِ به السّاعة.

ثمّ هو يدفن عقبَ السيجارِ في المنفضة.

- المظاهرات كلامٌ فارغ، لذا أرسلناه في بعثة صمت.

لم يساعدها وجهُه على فهمِ ما يرمي إليه.«لعلَّ هذا هو القناع الّذي عناه زوجُها» وحين أردف ببراءة.

- سأرافقك الآن إليه.

أرستها براءتُه على حسنِ الظنّ فرفعَت يديها ودعت له بإخلاص. غرغر بضحكة وأسنانه تقبضُ على شيء غيرمرئيّ.

جلست بجانبه في سيّارة كتلك الّتي ذهبت بابنها.جعلت ترقصُ في قلبها سعادةٌ فريدة . «ستلتقي بعد لحظات بابنها. ستحتضنُه، ستقبّله، وستعنّفُه أيضا على ما سبَّبَه لها من خوفٍ ومتاعب».

لم تنتبه إلّا والسيارة تعبرُ بها مقبرةَ المدينة. تطلّعت إلى الضّابط بعينين جاحظتين فتلقّاها بابتسامة كتكشيرة ذئب... صرخت. شدّت شعرها. مزّقت ثيابها. جعلت تحومُ على قبور عدّة ترابُها ما يزالُ رطبًا، تحتضن شواهدَ القبور، تقبّلها، تحثو على رأسِها التّراب، وقهقهةٌ مخمورةٌ تختلطُ بهديرِ سيّارة ذاهبة.

حدائقُ الفرح

مع العصرِ توافدت النّسوةُ إلى صحن الدّار. وجدن أمَّ الشّهداء كعادتها جالسةً في المِسطبة المُشرّعةِ ترقبُ البلدةَ من جهاتها الأربع. تلقَّتهنَّ بابتسامةٍ عريضة ونظرةٍ تقولُ أنّها تعرفُ لمَ جِئنَ هذه المرّة قبل الأوان.

تحلقن من حولِها بقلق. يتمنين لو تبدأُ الكلام فتنفيَ أنّ ابنَها قريبٌ من البلدة ليدخلَها اللّيلة عنوةً رغم أرتال الجنود. لم يجدن على وجهِها ما ينفي أو يؤكّد ظنونَهن والشّائعات. وجهُها دائمًا يطرحُ ابتسامةً مشرقةً تتصدّى أبدًا لرياح الحزن، تنبتُ على وجهها مع الكوارثِ حدائقُ من السّعادة والفرح؛ يرعاها بستانيٌّ ماهر.

لم يبن الحزنُ في عينيها مثلَهن أعشاشًا ليبيضَ طائرُه ويفقّس. صابرةٌ وعلَّمتهن الصّبرَ رغم أنّها فقدت الزّوجَ ومن أبنائها السّبعة لم يبقَ سوى الأصغر، وحتّى هذا فجسدُه منذُ خمسةِ أعوامٍ حقلٌ متحرّكٌ بالألغامِ والقنابلِ والرّصاص، يستردُّ بها الدّيونَ ممّن استباحوا أرضَه واغتالوا أباه وإخوتَه.

أنستهن الكوارثُ اسمَها القديم. بتنَ يناديها أمَّ الشّهداء فتورقُ على ثغرِها ابتسامةٌ خضراء، ثمّ تتنهّد بأسف.

ـ بقي السّابع وهو لم يستشهد بعد.

تعلمن ألّا يدعين له بطول البقاء. مثل هذا الدّعاء يثيرُها، يدفعُها إلى السّخرية منهن. تقولُ بصوتٍ يصبغُه اللّيل بلونه الدّاكن.

ـ إذن لن يهدأ أبوه وإخوته في قبورهم أبدا.

علّمَتهن أنَّ في الموت حياةً وأنّ هذه لا تُشترى بالصّمت والرّضى والخنوع. أشياءُ كثيرةٌ تعلمنها منها دون أن ترسمَ على لوحٍ أسودَ خطوطًا بيضاءَ ومن غيرِ أن تتحذلقَ بالكلام.

هبطَ اللّيل منجمَ فحم. تتوغّلُ فيه عيونهن. يحفرنَ بالرّموش الرّطبةِ بحثًا عن ذكريات عزيزة مضت. السّراجُ يرقصُ مع نسائمِ اللّيل رقصَ مُهرّجٍ مبتورِ السّاق.

الصّمت من حولِهن له دبيبٌ يطغى على أطيط أحذية الجندِ تغتصبُ الأزقّة. مثلُ هذه الحركة ليست غريبةً عنهن، ولكنّها اللّيلةُ أكثر إلحاحًا وسعارًا. تأكّد لهنّ أنّ ما سمَعْنَه عن عودةِ الغائب والرّجال صحيح. زحفنَ بعيونهن إلى أمِّ الشّهداء. ألفينَها ساكنةَ هادئة، تضجُّ من وجهها السّكينةُ والفرح.

«كيف لا تنفجرُ هذه العجوز باكيةً وآخرُ أبنائها في فمِ الموت؟إطائرُ الحزن ما زال يعشّشُ في عيونهن لفقدِهنَّ الأبناء، موتُهم جعلَ الحياةَ مشوّهةً ناقصة. باتت النّهايةُ أرحم».

أمّ الشّهداء تتململُ احتجاجًا على حزنهن وصمتهن. تنهضُ وتأتي لهنَّ بالشّاي. «كيف يستسغنَ طعمَه الحلو بأفواهٍ مرّة؟... ماذا

جرى لعقل هذه المرأة ؟... تنسى زوجَها وآخرُ أبنائها حقلُ ألغام متحرّك في غابةٍ ملأى بالسّباع». تضعُ في يدِ كلٍّ منهن كوبًا. ينظرن إليها وإلى الأكواب باندهاش وبَلَهٍ. تبدأُ الشّربَ وتشرعُ بالغناء«يا حوشِ الدّار عامر برجالك». يحثُّهن صوتُها على الغناء. «حين يرقصُ المحكومُ عليه بالموت فكيف لا يشاركه الحضورُ الرّقص؟!».

تحكي للمرّة الألف سيرةَ هذي الدّار؛ مذ كان زوجُها يعود من البيدر بالجمال والبغال مُحمّلةً بالحنطة والذرّة؛ يلقيها في الحوش تلالا من الخير العميم، فيما الأولاد يختبئون بين الأكياس يلعبون «عسكر وحرامية» في اللّيالي المُقمرة، والمسطبةُ تعبق برائحة التّبغ وأنفاس الرّجال؛ قبل أن يذهبوا برصاصة غادرة رُسِمت عليها نجمةٌ بستِّ زوايا حادّة.

الأحذية تمضغُ الشوارع . خوذاتٌ حديديةٌ تطفو على جدران الحوش. صوتُ أم الشّهداء يعلو بعنادٍ ينطحُ الأقدامَ الغازية. تعدّدُ مناقبَ الأموات وتدعو الأحياء أن يرووا الأرضَ بدمٍ أحمرَدافئ. صوتُها يتفجّرُ أسًى في صدور النّسوة، يغرقنَ في سيل من الدّموع. يقلن راجيا.

- كفى يا أمَّ الشّهداء.

القمرُ في المحاق يفركُ عينيه ويتثاءبُ ناهضًا من أحضان الأفق، يرشُ أسطحَ المنازل بنورٍ باهت. تنتصبُ البيوتُ خيالاتُ مآتة مُتهدّمة. السّراجُ على المِسطبة يدوخُ من حمّى الرّقص؛ فيسقطُ

مغشيّا عليه. تصلصلُ الخوذاتُ من فوق السّور، تشير أمُّ الشّهداء بإصبعها ساخرة.

ـ الذّئابُ تبحث عن دم جديد.

ترفعُ النّسوة أيديهنَ الى السّماء. يتمنين ألّا يعودَ ابنُها اللّيلة والرّجال. تفرضُ عليهن بصوتها الغاضب السّكوت.

ـ لن يطردَ هؤلاء غيرُ الرّجال. يجب أن يعودوا اللّيلة.

تنهضُ نافضةً عنها عبءَ السّنين. تزمجر.

ـ ابني بالذّات عليه أن يعود.

تستحثُّ النّسوةَ على الغناء. يشرنَ إلى الخوذات بوجل.

ـ ألا ترين؟

تطلقُ ضحكةً تركضُ في اللّيل ركضَ ذئبٍ جائع.

ـ ابني لديه مثلُهم بنادقُ ورصاص.

تسكنُ الحركةُ وتختفي الخوذات. تغدو النّجومُ أكثر لمعانًا من قبل. تتنهد النسوة فرحا.

ـ لقد ذهبوا.

تضحك باستخفاف.

ـ فتّشن تحتَ جلودكن...إنّهم هناك.

يلعلعُ صوتُ رصاصٍ من بعيد. يقتربُ الرّصاص. تمتلىءُ أحشاءُ البلدة بالرّصاص. يشهقن بفزع. يتحلّقن مِن حول أمّ الشهداء.

تقول بفرح.

ـ لقد جاء ابني. زغردنَ معي يانساء.

تطلقُ زغرودةً، تمتلىءُ الدارُ بالزّغاريد والرّصاص. يقفزأحدُهم من فوق السّور.

تهتف أم الشّهداء.

ـ ابنــي.

تتلقاهُ بذراعين راعشتين. تغوصُ يداها في سائل لزج دافئ. ترفعُ يديها إلى السّماء. يسقطُ جسدٌ على المسطبة. يخبّىءُ القمرُ وجهَه في غيمة عابرة. تزغردُ أمُّ الشّهداء.

تلتفتُ إلى النّسوة آمرةً أن يزغردنَ ويواصلن الغناء.

زعترُ التّل

سدّدَ أبي إلى أمّي نظرةً حارقة. ماتت الابتسامةُ على ثغرها. غدَت شطائرُ الزّعتر بين يديها دليلَ جريمة لا تُغتفر. صرخَبها بصوت كالرّعد.

ـ شطائرُ زعتر؟ شطائرُ في المخيّم هنا؟ شطائر بلا زيت زيتون؟

وهوى بيده على صدغِها وراح يعجنُها بين يديه وهو يزعق«عاهرة، ساقطة، ملعونة». انزَوَت في ركنٍ من الخيمةِ باكيةً بصمت. ظلَّ يمطرُها سبابًا وشتائمَ؛ فوجدتُ أنا فيما حدثَ فرصةً للبكاء على أشياءَ كثيرةٍ تركتها في بيتنا الكبير. زعقَ بي أن أخرس. لملمتُ دموعي وتجمَّعتُ على نفسي مُتوقّعًا أن تنهالَ عليَّ الصّفعاتُ من يدٍ خشنةٍ؛ طالما ربتَت عليَّ بحنان دافقٍ كان يدفعُ أمّي إلى القول.

ـ ستفسدُ الولدَ بكثرةِ التّدليل.

كان يطويني بين ذراعيه يقبّلُني على وجنتي وأرنبةِ أنفي.

ـ إذا كانت الأرض إحدى عينيّ فهو الثّانية.

ثمّ يبسطُ يدَه على الأرضِ المُلتحفةِ بعباءة خضراء.

ـ هل ترين أنّي أفسدُ الأرض؟

اختلستُ إليه النّظر. كان عليّ أن أتحقّق من أنّ الّذي اتّهمته أمّي بإفسادي هو مَن تلبَّسَه وحشٌ مفترسٌ؛ فزعقَ بي أن أخرسَ وضربَها بقسوةٍ ورماها بأقذعِ الصّفاتِ؛ لمجرّد أنّها لملمَت الزّعتر من وسط الخيمة وصنَعت منه شطائرَ كان يُحبّها.

تهالك على الأرضِ أمامَ الخيمةِ وسطَ رجالٍ ونساء جاؤوا يستطلعون الأمرَ؛ وفي عيونهم دهشةٌ مثلي مِن تحوّل أبي بما عليهِ من طيبةٍ ووداعةٍ إلى وحش مفترس. ظلَّ صامتًا شاحبَ الوجه وهم يسألونه عن جليّة الأمر. فجأةً أخفى وجهَه بين يديه وأجهشَ بالبكاء.

قبل أن أراه يبكي لم أصدّق أحدًا من الصّبية أن ليسَأبي أقوى الرّجال؛ كيف لا وهو الّذي كان يركض من خلف المحراث في البلدة من الفجر وحتّى العشاء؟ ويأكلُ على الغداء خمسة أرغفةِ طابون محشوّة بالزّعتر؟

وحينَ تخلَّصَ البغلُ الأحمر ذات مرّة من المحراثِ وانطلقَ كالزّوبعة وضعَ قمبازَه المُرقَّط بين أسنانه؛ ولحِقَ به صاعدا التّلال، هابطًا الوديان حتّى عاد به أخيرا يعتلي ظهره؟!

فرضَ بكاؤه الصّمت على الجميع فما عادوا يسألونه عن شيء. حتّى أمّي تململَت في جلستها وتمخّطَت ثمّ اندفعت نحوه مُقبّلةً رأسَه طالبةً منه السّماح.

دفعَها عنهُ برفق وظلَّ يُخبّئُ وجهَه الشّاحب بين يديه. استطعتُ أن أرى حَدَبةً نبتت فجأة في أعلى الظّهر، وأنَّ رأسَه العاري قد غدا شعلةً بيضاء. هبَّ واقفا فجأة. حدَّقَ إلى الحاضرين بعينين حمراوين. اقتحمَ الخيمة. نثرَ الفِراش. أخرج بندقيةَ صيدٍ قديمة ثمّ قفز على ظهر البغل ومضى به إلى الغرب.

لطَمت أمّي وجهَها تُحدّق برعبٍ إلى غبارٍ أثارته حوافر البغل.

ـ عنيد. سيذهبُ إلى البلدة ويقتلُه اليهود.

ظلّت النّسوةُ يُهدّئنها بأن لا شيءَ غريبًا حدث؛ وإن هو ذهب إلى البلدة فقد حذا حذوَ كثيرٍ من الرّجال؛ يجتازون خطوطَ الهدنة ويقاتلون العدوَّ ثمّ يعودون ليحكوا قصصًا طريفةً عن جبن اليهود، ويعجبون كيف حدثت النّكبةُ ثمّ يختمون حديثَهم بالقول كمدا «إنّها الخيانات، إنّهم الإنجليز». كفَّت عن لَطم وجهها بيد أنّها ظلّت مُتحفّزة للبكاء.

أخفيتُ عنها سروري، توقّعتُ مِن أبي أن يعودَ بقصصٍ طريفةٍ عن اليهود؛ أو على الأقلّ أن يرجعَ بغير وجههِ الشّاحب، وبغير تلك الحَدَبة الّتي نبتت فجأة في أعلى الظّهر. لأيّام عدّة بعد النّزوح ظلَّ جامدا كتمثالٍ من الصّخر الأصمّ؛ تكنسُ وجهَه زوابعُ من

الحسرة والحزن، لا يفوه بكلمة إلّا حـــين يخرجُ إلى البغل المربوط أمام الخيمة، يكلّمه بحنان وهو يفركُ أنفَه بقبضة زعترٍ ما زال أخضر. يرقُّ صوتُه حتّى يغدو همسا.

ـ أنتَ تعرفُ الطّريقَ إلى البلدة. أنت تعرفُها. هذه هي رائحتُها.

وحين تسأله أمّي عمّا يعنيه يروغ منها؛ وتستلقي في عينيه نظرةٌ حانيةٌ كتلك الّتي كنتُ أراها حين تأتيه بشطائر الزّعتر وهو في الحقل. تلك أكلتُه المُفضّلة تَحلبُ أمّي بها رضاهُ مهما اشتطَّ به التّعب، تمضي بي إلى التلِّ الشّامخ في طَرفِ البلدة الشّرقيِّ النّابت بالزّعتر، تملأ حجرَها وأملأُ حجري ممّا ألتقطُه من بين الصّخور الملساء _ كنتُ دائما أفضّلُ النّابت منهُ بين الصّخور_ تصنعُ منه شطائرَ، تنقعُها بزيت الزيتون، ثمّ تمضي إلى الحقل.

يفركُ أبي يديه ارتياحا، يفترشُ الأرض، يلتهمُ الشّطائر وعيناه تغفوان على التلّ، تنحني عليه السّماء لتلثمَ جبهتـه العالية. وإذا ما اعترضَ أسنانَه جَذرٌ صغيرٌ تشيرُ أمّي إليَّ ضاحكةً فيمسكُ بأذني مُلاطفا.

ـ الزّعتر لا يُخلعُ من الجذور. دعها في الأرض تتمدّدُ هناك.

ثمّ يمدُّ يدَه إلى العُشبِ النّامي من حوله يقصُّه بأصابعه.

ـ اقطفه هكذا من أعلى، من اللّباليب اقطفهُ بيد حانية. الزّعتر لا يحبُّ الأيدي الخشنةَ، لذا فأنا لا أقطفه.

ولكن كما تخلّى عن حبّهِ لي تخلّى مِن قبلُ عن حبّه للزّعتر وعطفِه عليه. حين كانت أصواتٌ مرعبـةٌ تزلزلُ البلدةَ انشغلَت أمّي بخطفِ المتاع وإلقائه على البغل؛ أنزلني عن ظهره بغِلظة وهجمَ على التلِّ يقتلعُ الزّعتر مـن الجذورِ؛ يحشوه في طَرف قُمبازه.

ظلّ طيلة الطّريق الّتي بدت بلا نهاية يترنّحُ بحمله العزيز. رأيت يومها في عينيه حسرةً لأنَّ في غير مقدوره أن يحملَ التلَّ على كتفيه ويرحلَ بعدمـا تعذّر البقاءُ هناك.

انصرَمت أيّام عدّة. أجلسُ في حضنِ أمّي ننتظرُ عـودةَ أبي. النّهار كاللّيل غرابٌ أسودُ يطوي رأسَه تحت جناحيه؛ وينعبُ لجرحٍ أدماه. الخوفُ يفترسُ وجهَها لحظةً بلحظـة رغم حرصهاعلى ألّا تنقلَ إليَّ خوفَها؛إلّا أنّ دموعَها كانـت تفضحُها كلّما التقت بالنّسوة اللاّتي فعلَ أزواجهن أوأبناؤهن مثلَ أبي.

يتحدَّثن عن أشياءَ مثلَ الترمّل واليتم واليهود. لذا بتُّ أخشى ألّا أرى أبي ثانية بعدما أخذ البندقيّةَ وركبَ البغل. نقلَ اللّيل صريرَ الحصى تحتَ حوافر البغال. تصدّت له الكلابُ بنباحٍ مُتّصلٍ شرسٍ ثمّ بهمهمةٍ تشبهُ الغناء. انتفضَت أمّي. ألقتني من بين ذراعيها وهبّت واقفةً بمرح.

ـ عاد أبوك.

رغم حُلكةِ اللّيل نقلَ إليَّ صوتُ أبي ما يزخرُ به من بهجة وحبور. حتّى البغلُ خلتُ أنّه يطأُ الأرضَ بخُيَلاء وزهو. ربطه أمام الخيمة وربتَ على عنقه بامتنـان. تناولَ عن ظهره الخُرج. ألقاه وسطَ الخيمة. قبّلني بشوق ثمّ احتضن أمّي قائلًا يعتذرُ لها عمّا فعله قبل أن يذهب.

ـ تستطيعين الآن أن تصنعي شطائرَ الزّعتر... الزّعتر بالزّيت.

هجَم على الخُرج يفتحُه فعبقَت الخيمةُ برائحةٍ طالما تعطّرت بها أمّي وهي ذاهبةٌ إلى الحقل. تربّع يبرمُ شاربيه ويدخّنُ باستمتاع. رأيت وجهَه على السّراجِ مُورَّدًا يشعُّ بالسّعادة والدّفء. احتضنني كما كان يفعل هناك في البلدة.

فرك أذني قائلا بزهو.

ـ أبوك قتلَ ثلاثةً من اليهود العكاريت.

شرَعت أمّي تعاتبُه وهي تتحسّسُ الزّعتر ببيدٍ راعشة.

قال باعتداد يخلو من ألم.

ـ إنّها أرضُنا،إنّه زعترُ التلّ،أيُّ قـوّة لن تمنعني من الذّهابِ إليه.

وغاص بيده في الكومةِ الخضراء مترنّما.

- انظري. لن تجدي فيه جذرا واحدًا. تركتُ الجذورَ لتنمو وتتمدّدَ إلى أن نعود جميعا هناك.

انكفأَت على وجهها تبكي. شهَقَ باحتجاج. التفت إليّ باسمًا وقال بحبّ:

- أنتَ لست ضعيفا مثلها. تريدُني أن أذهب.أنت أيضًا يجب أن تذهبَ ذات يوم.

لُمتُ أمّي على بكائها. تصوّرت نفسي وأنا أتسلّق التّلَّ أحبو بين الصّخور،ألتقطُ الزّعتر من أعلى، من اللّباليب.

هممتُ أن أصيحَ ضارعًا:«خذني معك أبي». وصلني نشيجُ أمّي حادًّا فسكتُّ. استيقظتُ على صوتِ أمّي الصباحَ تغنّي. غزَت أنفي رائحةُ الزّعتر وهو يستحمُّ بالزّيت.

ضمّتني إلى صدرها قائلةً بفرح.

- لنَ يذهبَ أبوكَ بعدَ اليوم. سيظلُّ معنا.

لا أدري ماذا فعلَت به سريعا. نظرتُ إليهِ عاتبًا. ابتسمَ فاتحًا لي ذراعيه. ارتميتُ بينهم عصفورًا أفلتَ مِن براثنِ صقرٍ جارح. صاح وهو يلصقني بصدرهِ العريض.

- متى تصبحُ رجلا؟!

كفَّت أمّي عن الغناء . حدَّقَت إليه بذعر . قالت وهي تزومُ مِن أمامِ الفرن:

- لا شأنَ لك بالولد.

غرغرَ بضحكةٍ طويلةٍ وغمغَم ضاغطًا على نواجذه:

- امرأةٌ بلهاء.

نحَّاني عنه. هوى بيده على قبضةِ زعترٍ وخرجَ إلى البغلِ يدعكُ أنفَه ويهمسُ له. فتَحَت فمَها ببله.أدرَكَت أنّها تسرَّعت كثيرًا بظنّها أنّه لن يذهب.

أخذني أوّل اللّيل بين ذراعيه يُقبّلني فنمتُ ورأسي إلى صدره المُشعِر. لم أستوعب كلامَ أمّي وهي تصيحُ بي أن أنهض.

- لقد ذهب.

داريتُ عنها فرحي. لم أرَه سعيدًا مذ نزحنا كلحظةِ عودتِه بالبغل من هناك. ربّما لأنّه جلبَ معه من البلدة الزّعتر والزّيت، وربّما لأنّه قتلَ ثلاثةً من اليهود. قلت ببرود وأنا أمدُّ رأسي من الخيمةِ.

- حقًّا لقد ذهب!

رمتني بنظرةِ فزعٍ ثمّ لطمت وجهها وصاحت.

- كنتُ أخشى أن يفسدك وها قد وقعَ المحذور.

أكّدتُ لها أنّ أبي سيعود بعدما يقتلُ من اليهود عشرةً؛ ولكنّها ظلّت تولولُ غير مطمئنّةٍ إلى رفيف عينها اليسرى، وباحت للنّسوةِ بخوفها من التّرملِ وهي بعدُ في شرخِ الشّباب.

لم يمنعني بكاؤها ولا خوفها من تصوّر نفسي أتسلّقُ التّل، أحبو بين صخوره الملساء، أقطفُ الزّعتر من اللّباليب.

مزَّقَ غفوةَ المساء نباحٌ جريحٌ من كلاب أليفة. دقَّت أمّي صدرَها وناحت.

- أبوك.

هرعتُ خلفَها إلى الطّريق الممتدّةِ غربًا. طالعتنا زوبعةٌ تغزلُ التّراب بساقٍ واحدة. انجلَت عن رجالٍ يسوقونَ مِن أمامِهم بغلا أحمرَ يترنّحُ عليهِ جسدٌ اختلطَت جراحُه الحمراء بعبير زعترٍ أخضر. كانت عيناه مفتوحتين وسعَ بيدرٍ عامر تحدّقان إليّ. تسألانني بإلحاح: أن متى أصبحُ رجلًا؟!.

الرّجل الّذي وجدَ نفسَه

(1)

سيكون

كانَ ينقلُ السمّاعة على صدر المريض وبطنه. سيلٌ من الشّتائمِ يتدفّقُ مِن فمِه لتركِه المرضَ يستفحلُ على هذه الصورةِ بهِ.

ـ متى تتعلّمون أن تراجعونا لدى أوّلِ الشّعور بالمرض.

مثلُ هذه الحالات تضطرّه للفحص الدّقيق. تمضغُ الوقتَ الّذي يمكنُه أن يعالجَ فيه مريضين أو أكثر. هناك الكثيرون في انتظار دورهم. كثرةُ المراجعين تجبرُه على قضاء النّهار وجزءٍ كبيرٍ من اللّيل في العيادة بعيدًا عن زوجه. من حقّها عليه أن تراه آخر النّهار وأوّلَ اللّيل، يجالسُها ويناغيها فتذهب عنها الوحدةُ والوحشةُ.

إحساسها بالغبن يُعذّبه. لا تفتأُ تذكّرُه بتضحياتها الجسام: باريسُ بلدُ الحبِّ والجمالِ والأُمنياتِ العِذاب تركَتْها مِن أجلَه ورحلَت معه. هو ذاتُه كان يتوقُ للذَوَبانِ في شوارعِ تلك المدينة المغسولةِ بالعطر، ولكنّه الوطن والمستقبلُ الزّاهر الّذي لا ينقادُ بغيرما كدٍّ وعَناء، فتأتي الشهرة ويهرعُ المالُ فاتحًا عوالمَ سحريّة يعجزُ عن حصرها الخيال. «لا بأس سيمسحُ ما تشعرُ به زوجُه من غبن وضيق...سيحقّق ما يصبو إليه وسيحسدُه الأطباء».

(2)

الامتحان

صفعَ أذنيه صوتُ انفجار هائل اهتزّت له العيادةُ بعنف وكأنّها محمولةٌ على كفِّ عفريت. غاص قلبُه في بئر بلا قرار. سقطت السمّاعةُ من يدِه قبل أن يتحطّم زجاجُ النّوافذِ والأبواب. تدافعَ المراجعون نحوه يتذاكرون ما الّذي سيحدث بعد قليل. سيارات تطلقُ نفيرًا متّصلا يغازلُ الأعصابَ بغلظة وخشونة، مكبّرات الصّوت تُحذّر من التجّول... يعقبُ هذا كلّه اقتحامُ البيوت وتفتيشٌ وضربٌ واعتقالاتٌ بالجملة. «ستتحوّل هذه المدينة إلى جحيم».

تهالكَ على أقرب مقعد. دفن وجهَه بيديه «سيضطر حتمًا إلى قضاء اللّيل بعيدا عن زوجه... قد لا تستطيع هذه المرة أن تتخطّى طوقَ الحصار وتأتي كما فعلت مرارا من قبل... وجودُها كان يقتلُ في عينيه الدّهشةَ أن كيف اقتحمت المصفّحات والبنادق... هل هو الحبّ؟».

انتشلتهُ أصواتُ المراجعين من قرارٍ سحيق. رفع وجهَه فجأةً. جحظت عيناه كأنّما يراهم لأوّل مرّة. تحيّر ماذا يفعل بكلّ هؤلاء.«لن يصدّقوا أن هذا الحشدَ كلّه من المُراجعين... لماذا ؟ .. هل أقفرت المدينةُ من الأطبّاء إلا منك؟!». هذا ما يقولونه في كل مرّة. يلكزونه بأعقابِ البنادق يزرعون في أذنيه دوائرَ لا حصرَ

لها من الشّتائم والسّباب. يظلُّ طيلةَ الوقت يبتسمُ حتّى يتركوه. ابتسامته الشّاهدُ الوحيد على براءته كما يقولون، ولكنّه يدفعُ الكثيرَ من الجهد والتكلّف والصّبر. « ألا لعنةَ الله على مخترعَ ومُسبّب هذه الأصوات المرعبة».

(3)

القَـــــــرار

بلا مقدّمات، قفزَ إلى الباب وأشار إليهم بيده أن يخرجوا. نبّهوه برفق إلى أنّه يدفعُهم إلى حتفهم. صرخ بلا وعي.

- لا يهمّني... فلتذهبوا الى الجحيم.

تدحرجوا إلى الخارج. ظلَّ واقفا. هاجمَه شعورٌ بالوحدة قاتل. ندِمَ على أنّه طرَدَهم. تحيّر ماذا يفعل. يغدو رأسُه صفحةً سوداءَ يرقصُ عليها قلمٌ مُدبّب. «هل يخرج؟ هل يبقى؟ ماذا تفعل زوجُه الآن ؟ هل تراها تنتظر عودته؟ هل هي في طريقها إليه؟». نفيرُ السّيارات يرشحُ من مسامات المدينة. المكبّرات تطحنُ أعصابَه. «وقع المحذور». يطفئُ النّورَ. يشعله. يمزّقهُ الغيظُ. يدورُ في أرجاء الحجرة. تحومُ من حوله طيورٌ سوداء تحطّ عليه. تنشبُ مخالبُها فيه. تبيضُ وتفقس في عينيه. تقعُ عيناه على السّرير. يودُّ لو يستلقي عليه وأن يُعالجَ من مرضٍ ما.

(4)

الزائر

سمِعَ البابَ الخارجي يُفتح ويُغلق بعنف. تنهالُ عليهِ أطنانٌ من الخوف. يسقطُ قلبُه إلى قدميه. اقتحمَ عليهِ المكانَ رجلٌ يلهث. يظنّه واحدًا من المُراجعين. يزعقُ به أن يخرج. يهزُّ الرّجل رأسَه مُمانعًا. نظراتُ الرّجل إليه طيورٌ مهاجرةٌ بدأت رحلةَ العودة إلى موطنها الأصليّ. يلمحُ كفّه تضغطُ كتفًا مُخضّبة بالدم. يغمغم مأخوذا.

- دم؟!

يدرك أنّ هذا من بعثَ هذه الحركة في المدينة بعد سكون.

ينقضُّ عليهِ كطائرٍ ذبيح.

- اذهب ولا تجلب لي الضّرر.

ما تزال الطّيورُ في عينيهِ تتناغمُ بادئةً رحلة العودة إلى موطنها الأصليّ، يقول بلا انفعال.

- الرّصاصة في كتفي ساقتني إليك.

يضغطُ على نواجذه.

- بل قل حظّي النّحس.

يبتسمُ الرّجل مُهوّنًا.

كونُ الرّصاصة في الكتف فهذا حظٌ حسن. هيّا أخرجها بلا تخدير.

عينا الرّجل تتآمران مع نفسِه عليه. يهمُّ أن يغرسَ فيهما أصابعَه. يديرُ له ظهره قائلًا بحزم.

ـ يداي لا تسعفانني في مثل هذه الأحوال.

يقول بلهجة أبعد ما تكونُ عن التّأنيب.

ـ كنتُ ولا أزالُ بين فكيْ الموتِ ومع هذا لا أرتعش مثلك.هيا أخرجها أو امنع هذا النّزف على الأقلّ.

لا يقوى على ضبطِ ارتعاشه. نفيرُ السيّارات ما يــزال ينبثقُ من مساماتِ المدينة. يسيلُ في أذنيه كالصّديد. مُكبّرات الصّوت تنحرُ آخرَ ذرّةٍ من تبرير اليأسِ لديه. يستديرُ إلـى الرّجلِ ضارعا.

ـ كلُّ لحظةٍ تمضيها هنا تذبحُ مُستقبلي من الوريد للوريد.

يقولُ ببرود يزعجه.

ـ ليسَ لك أو لي مستقبل في هكذا وضع.

زعقَ وقد طفرت من عينيه الدّموع.

ـ دعكَ من مستقبلي ، فأنا أدرى بما ينفعُني أو يضرّني.

ينظرُ إليه الرّجل شزرًا ويقول باحتقار.

ـ لم يقابلني أحدٌ من قبل بمثل هذه الفظاظة وهذا الجبن.

جحظت عيناه رعبا. «إذن فهو أمامِ محترفٍ بعثَ الحركةَ في هذه المدينة مرارًا مِن قبل... كيف سيتخلّص من هذه الورطة... سيضيعُ هو وتضيعُ زوجُه وتتبعثرُ أحلامُه الزّاهية في الهواء... لن تكتحلَ عيناه برؤية باريس، ولن يرى عجائبَ الدّنيا السّبع... لمَ لمْ تسقه الأقدارُ إلّا إليه؟».

زعق بهستيريّة.

ـ لن أسمحَ لأحدٍ أن يُخرّب مستقبلي.

يقبضُ على مِشرط، يلوّح به في وجه الرّجل. يتقبل هذا منه ببرود. يتجمّدُ في عينيه الاحتقار، يتراجع ناحيةَ الباب، يخطفُ من حزامِه مُسدّسا. يصوّبه إليه. يقول كأنما يبصق عليه.

ـ أستطيعُ أن أرغمَك على فعل ما أريد.

خرجَ مُسرعا... يغرقُ في بحرٍ من الحيرة. يزحفُ نحوه شعورٌ جارفٌ بالخزي والخذلان. يسقطُ المشرط من يده. تسقطُ نظراته على الباب باردةً متعبة. يرى الفراغَ وحشًا يفتحُ شدقيه مبتلعًا من حوله كلَّ شيء. يتركُ البابَ مفتوحا. ينظرُإلى السّرير. بودّه لو يستلقي وأن يُعالجَ من مرضٍ ما.

(5)

اليقظة

اقتحمَت العيادةَ ثلّةٌ من الجنود تسبقُها رشّاشاتٌ وبنادق .تراجعَ حتّى التصق بالجدار. صرخوا بصوتٍ واحد كأنّما دُرّبوا عليه.

- أين خبّأتَه؟

قلَّبَ يديه حيرةً واضطرابا، فوّهاتُ البنادق مغاراتٌ معتمة تطلُّ منها أفاعٍ بلا رؤوس.

- شاهدناه وهو يدخل.

أقسمَ بأغلظ الأيمان أنهم واهمون. «ليست هذه أول مرّة يدّعون أنهم شاهدوا الفاعل يدخل... هي إذن دقائق معدودة تهوى البنادق عليه وتصعد وبعدها يتنفّس بارتياح».

يحاولُ أن يبتسم. ابتسامتُه في حالاتٍ مشابهة كانت الشّاهد الوحيد على براءته. لا يستطيع الابتسام . تتوغّلُ عيونُهم في الأرجاء، تستقرُّ على بقعةٍ حمراء. يهزّون رؤوسهم. يغمضُ عينيه. يشربُ الألمَ حتّى الثّمالة.

يفتحُ عينيه مستعذبًا الضّرب. عينا الرّجل يحتلّهما الصّفاء، تعود إليهما الطّيورُ، تبيضُ فيهما وتفقس. يتحوّل الوجهُ المتعبُ إلى

ملاءة بيضاء تسرقُ منه الوعي. يتمتم وهو يطارد ابتسامةً تحاول أن تفرّ منـه!

ـ لعلّه وجدَ مَن يساعده!

متوعّدين يسلقونه بنظرات حداد. يتغلغلُ في الجـدار. تلسعُه برودةُ الجدار. تزحفُ نحوه البنادق... تهوى عليه وتصعد. ينتصبُ أمامَه وجهٌ متعب وعينان مزروعتــان بالاحتقار. « ليتكَ أخرجتَ الرّصاصة أو ليته أطلق الرّصاص عليك».

يومٌ واحدٌ في أرضِ الميعاد

صحوتُ لأجدَ نفسي مشدودا إلى هذا السّرير. لعلَّ الآلام الفظيعة في ساقي وظهري هي الّتي عجّلت بصحوي. لم أخطئ في معرفة المكان. ممرضةٌ إلى جانبي تبتســمُ بتكلّف ومشقّةٍ ذكّرتني بالشّرطي الّذي رافقَنا من الميناء، كان هو أيضا يبتسمُ مثل هذه الابتسامة ثمّ تخلّى عنها في الوقت المناسب.

دون أن أطيقَ النّظرَ إلى الفتاة طلبتُ منها أن تحضر قلمًا وورقة. طارت كأنّما هي في انتظار هذا الطلب منّي،أو أيَّ طلب.

لم يكن من عادتي أن أكتب ما يعرض لي من أمور؛ بل كنتُ أسخرُ من أولئك الّذين لا يتركون لحظةً من حياتهم تمرُّ دونما تسجيل. كنتُ أصفهم بالادّعاء والغرور والكذب؛ لكنّ أمورًا مُلحّة ذات ثقلٍ هائل تتوالدُ في راسي تكادُ تفجّره؛إن لم أساعدها على الخروج منه.

سألت الفتاة وأنا أعلمُ منها عن سبب وجودي هنا. فراحت تشرحُ لي أنّ الفندقَ الّذي أنزلُ فيه مع المهاجرين الجــدد تعرّض لهجوم من مُخرّب واحد تمّ قتله على أيدي رجال الأمن، وأنّ عدا ذلك لم تقع أيّ خسائرٍ تُذكر. نظرتُ إلى وضعي المزري وإلى الأسرّة المشغولة مـن حولي بالمهاجرين. رميتها بنظرة كانت كفيلة بأن

تنكّسَ لها رأسَها على الأقلّ بيد أنّها ظلّت تبتسم. حدّقت إليّ كأنّما لم تعرف الكذبَ في حياتها قطّ. قالت:

- هؤلاء المخرّبون ينطحونَ الصّخرَ بقرون من طين وعجين.

راودتني النّفسُ أن أبصقَ في وجهها. هربتُ بعيني إلى السّاعةِ على معصمي . كانت _ويا للعجب_ما تزال تجري دون أن تصابَ بأيّ خدش كأنّني لم أقفز من النّافذة في الطّابق الثّاني، والأغرب من هذا أنَّ عقاربَها تشيرُإلى الوقت الّذي تركت قدماي فيهِ ظَهرَ الباخرة. على أيّ حالٍ قد يفيدني هذا إن أنا أخبرت به الشّركة الّتي تصنع هذاالنّوعَ من السّاعات. هل كان هذا مصادفةً أم ثُراها الأقدارُ تعلّمني أشياءَ لم أكن لأطيقها مثل محاولتي تدوين هذه المُذكّرات! هل تراني سأفلح؟!

في مثلِ هذه اللّحظات من يوم أمس تركت قدماي ظهرَ الباخرة. للتوّ أرسلتُ أنفي ليشربَ من هواء البرّ المُشبّع بالسمن والعسل. لحظاتٌ رائعة أنكرت فيها نفسي. زدتُ اقتناعًا لا محالة أنّي كاسبُ الرّهان. سيرسلُ إليَّ روهان وبنيامين وكذلك راشيل ثلاثة آلاف من الدّولارات. حتّى راشيل الّتي في غاية البخل، كانت أكثرَهم حماسًا للرّهان. قالت وهي تشدُّ على يدي بيدها الرّخصة.

- امكث هناك شهورًا ثلاثة ولك عندي ألفُ دولار.

ووضعَ كلٌّ من روهان وبنيامين يدهَ على يدينا قائلين بالتّناوب:

- ومنّي ألف.

أدهشني هذا السّخاءُ بل التهوّر وأخفيتُ أنّني كنت أنوي الذّهاب إلى أرضِ الميعاد قبل أن اقصد المقهى؛ فأتبرّأُ منهم لهروبهم المخزي من تلك الأرض ولمَّا يمكثوا فيها ثلاثة أشهر... كيف يهربون ونحنُ اليهودُ فخورون بما وصلت إليه دولتنا من رقيٍّ وازدهار، ومن حقّها علينا أن نكونَ في سعي دائب للانضواء تحت جناحيها؛ وبناء دولتنا الكبرى والبقاء فيها لا الهرب منها؛ فيشكّل الأغرابُ أكثريةً تسحقنا في نهاية الأمر؟ عنّفتهم وهممتُ بضربِهم وربّما الغضبُ على وجهي هو ما جعلهم يسارعون بعرض الرّهان عليّ. أقول الحق:إنَّ المبلغَ قد أطارَ عقلي والغريب أنّهم لم يطالبوني بشيء إن لم أطق الجحيم _على رأيهم _هنا. صفقة رابحةٌ. سأمكثُ ثلاثَ سنين لا ثلاثة أشهرقبل أن أفكّر بزيارة «سوهو». لقد ضقتُ بالمواخير والتربّص في الزّوايا المظلمة، وكذلك التسكّع على صدور الغواني والسّاقطات.

انسابَ بنا الباصُ البولمان وسطَ سهولٍ مُمرعةٍ بالخضرة والسّحر. كان المنظر بديعا ملأ نفوسَ المهاجرين معي بهجةً فشرعوا يغنون؛ وطفحتُ أنا نشوةً فنهضتُ أرقص بينما الكلمات في دماغي تنمو بسرعة مذهلة. انتقيتُ منها ما يصلحُ أن أبعثَ به برقيةً قصيرةً إلى اصدقائي الخاسرين. «إن لم يكن لديكم المبلغ فأمامكم شهور ثلاثة لتوفّروه... الحياة هنا رائعة». الاطمئنان على وجوه الركّاب وكذلك الابتسامة على وجه الشّرطيّ الّذي رافقنا من الميناء؛ كانت كفيلةً لأن أرقدَ في مقعدي مُطمئنا هادئَ البال،

أخطّط أن كيف سأستثمر الآلاف فأغدو بين يوم وليلة من أصحاب الملايين. لن تأخذني الرأفةُ بهم، حتّى راشيل لن أعفيها من الدّفع ولو هي أعطتني جسدَها أتاجرُ به لحسابي الخاص. آه لم يمهلني الوقت كيما أمتّع النّفسَ بهذا الجسد وقد اكتسبَ بياضُه لونًا ساحرا من سماء الشّرق.

قبل سفرها قالت إنها ستجني مبالغ طائلة من تقديم لحمها الأبيض لأفواه العرب؛ الّذين تصلنا أخبارُهم أنّهم يبيعون ما فوقَهم وما تحتهم من أجل وليمة جنس وإن كانت باردة. كانت متأكدة من أنّها ستشعلُ بفورتها كلَّ ما حولها من هشيم هؤلاء، وما كان لديّ شكّ في أنّها ستفعل.

توقّف بنا الباص فجأة عند منعطف يطلُّ على واد سحيق. كانت هناك دبّابة محطّمة وكذلك بضعُ سيّارات «لاند روفر» مصوّبة رشاشاتِها إلى أسفل، وسربٌ من الطّائرات العموديّة تحومُ في المكان؛ تلاحقها عيونُ الجندِ الرّابضين خلفَ مدافعَ باهتمامٍ فيما ألسنتُهم ترمي المخرّبين بأقذع السّباب.

حاول من معي وكذلك أنا الترجّلَ من الباص؛ ولكن ضابطا شابًّا كان على وجهه اصفرارٌ مريع أمرَ السّائقَ بالتحرّك فورا. ولخبرتي الطّويلة في عالم الجريمة أدركتُ أنّ باعثَ اصفراره لم يكن سوى الخوف بل الذّعر الشّديد. لم أفهم في البداية مبعثَ ذعره؛ إذا كان المخرّبون هم السّبب حقّا فأمرٌ يدعو للغرابة

والاستهجان، فهؤلاء كما تصلنا أخبارُهم جماعةٌ مارقةٌ تحرثُ عبثًا في صخر دولتنا الصّلد.

مددتُ عنقي من النّافذة أتطلّع حولي. رأيتُ بعد أمتار قليلة من الدبّابة المنظّمة سيارةً عسكريّة وقد تناثرت أشلاء؛ على مقربة منها سيارةُ إسعاف تنتظرُ حاملي عددٍ من أجساد هامدة. نظرتُ إلى من حولي. كان كلٌّ منهم مشغولا بالحديث إلى نفسه. أمّا الابتسامة على وجه الشّرطيّ فقد كانت تترنّحُ ذابلةً وهو يتلفّتُ حولَه ببله، ولمّا التقت عيناه بعينيّ هربَ بهما إلى قدميه. سخرت من هذا الذّعر المخيّم على الجميع. شرعت أغنّي فلم يشاطرني أحد منهم الغناء.

كانت نظراتُهم إليّ قد نبتت لها أسنانٌ تطالبني بالسّكوت. تسلّل إليّ بعضُ خوفِهم حتّى إذا اقتربنا من تل أبيب خُيّل إليّ أنّها وحش كثيفُ الشّعر؛ يفتحُ فاهًا ليبتلعني ومن معي. ظلّ هذا الشّعور يلاحقني إلى ما بعد دخولنا بوابةَ الفندق.

استلقيتُ على السّرير. تركتُ مؤشّر المذياع على صوت إسرائيل كي أقفَ على نتيجة الحادث الّذي غيّر حالَ الرّكاب والضّابط والشّرطيّ. في إحدى النّشرات أعلنَ المذيعُ بصوتٍ واثق أنّ دوريّة تمكّنت من القبضِ على مخرّبين حاولا إلقاءَ قنبلةٍ عليها. «آه... كلُّ الانتظار والترقّب ينتهي بكذبة كبيرة...أينَ الخسائرُ الّتي شاهدتها بعيني؟ لعلّهم لم يقبضوا على أيّ مُخرّب، فمن لا يصدقُ مرّة لا يرى غضاضةً بالكذِب مرّات... طوابيرُ الجنود وأسرابُ الطّائرات تقوم بالبحث اللاّمجدي؛ في حين وحدي كنت أقبض

على محترفي الفساد والشّغب في سوهو وألقّنهم دروسًا فأمحو من رؤوسهم كلَّ تفكيرٍ بالعبث المجانيّ».

في المساء نزلتُ إلى بهو الفندق. شربتُ كثيرا، ورقصتُ مع فتاة مُجرّبة لم تمانع بالذّهاب معي إلى الفراش. حاولت أن استدرجَها للحديث عن طبيعة الحياة هنا فلم أفلح. كانت طيلة الوقت تشغل فمها بالقبل. ضقتُ ذرعًا بها ولم تكن هي بأقلّ ضيقًا منّي. حين حاولتُ أن أعطيها أجرَها رفضت قائلةً إنّها متطوعةٌ للعمل وإنّ هذا واجبها... ندمتُ على أنّني كنتُ أهدر طاقتي ومشاعري مع آلة بلا مشاعر.

رحتُ أطوف شوارع المدينة. لفت انتباهي ضوءٌ برّاق لسينما تعرضُ فيلمًا عن جرائم النّازي في حقنا نحن اليهود. لم أضيّع الفرصة. دخلت أجوسُ في ظلمةٍ مطبقة فرأيتُ آلافَ اليهود يسوقهم النازيّون إلى معسكرات الاعتقال، وآلافًا أخرى تساقُ إلى الأفران. ضابط نازيٌّ يقف وزميلٌ له في دورة المياه... يناوله قطعةَ صابون ضاحكًا.

- جرّب هذا النّوع... لحم يهوديّ ينظّف أكثر.

الحقّ أقول إنّني لم أتحمّس في حياتي للهجرة إلى أرض الميعاد كحماسي أثناء العرض؛ حين رأيتُ أبناءَ جلدتي يذبحون ويحرقون بالآلاف. سررتُ أنّ نهاية المطاردة ظُهرًا أثمرت بالقبض على اثنين من المُخرّبين دون خسائر في جانبنا تُذكر... وسررتُ أكثر أني سأقبض بعد ثلاثة أشهر آلافًا من الدّولارات الطّازجة.

عدتُ إلى الفندق وأنا أكثر تصميمًا على البقاء... راودتني نفسي في لحظةٍ تجل أن أعفي أصدقائي من الرّهان ما داموا هم السّبب في التّعجيل بمقدمي؛ وبما أشعرُ به من سعادة مطلقةٍ وراحة بال.

لم أكد أتخلّص من ثيابي وأندسُّ في الفراش حتّى خرقَت أذني أصواتُ قنابل تتفجر ورصاص؛ طغت عليها صيحات من في الفندق وصراخهم. لا أدري لمَ تصوّرت في لحظة أنّ المخرّبين الذين تسبّبوا في حادث الطّريق هم من يطلقون الرّصاص الآن. ذهبتُ إلى أكثر من هذا فتصوّرت أنّ ما رأيته في الطّريق لم يكن سوى كمين نصبَه هؤلاء لنا نحن المهاجرين؛ فهم كما أعلمُ يعتبرون هذه الأرض لهم.

لم أجد الوقتَ الكافي لاستطلاع جليّة الأمر. كانت النّافذة تغمزُ لي فلم أتردّد في القفزِ منها إلى الشّارع. شعرتُ أنّي أذوب وأتلاشى ونجومٌ تخطفُ البصرَ وترقصُ أمامي بلا نظام.

يظهرُ أنّي قضيتُ اللّيل وقسمًا كبيرًا من النّهار فاقدًا الوعيَ لأصحو على نفسي وأنا مشدودٌ إلى هذا السّرير الأبيض. لست أدري كم سأظلّ على هذا الوضع . كلُّ ما أدريه أنّني سأخسرُ الرّهان إن كانت المدّة الّتي سأقضيها على السّرير أقلَّ من ثلاثة أشهر.

أسوارُ اللّيل

منذُأدركتُ أنَّ الهلالَ ليس بطيخًـا يُؤكل وأنا أرى اللّيالي كالنّساءِ يحبَلن بالعجائب ويلدن. كلُّ شيء كما عهدتُه يغرقُ في طاحون اللّيل. أبي دخلَ الدارَ مُحمولًا على أعناقِ الرّجال في اللّيل. أخي غَرقَ كجدي في بحرِ يافا الأزرق في اللّيل. أمّي حملتني تاركةً بيتَنا الكبيرَ في اللّيل. اللّيل مواليدُه تجعلُ الأطفالَ أيتامًا والنّساءَ أراملَ؛ ويحكمُ على الشّمس بالموتِ في عزّ الظّهر.

وهذه اللّيلة كسابقاتها تجري المرارةُ فيها جريانَ اللّعابِ من فمِ كلبٍ جائع. كنتُ مخطئًا حين اعتقدتُ أن سيحقق لي السفرُأمانًا واطمئنانًا أشتهيهما ليومٍ واحد، لساعة واحدة، للحظةٍ واحدة. مذ تركتُ يافا وأنا أحلمُ بمدينة يطوّقهـا البحرُ بذراعيه وساقيه، يفرشُ عباءَتـه عليها. تنامُ في حضنِه مطمئنةً وادعةً وقد نزعَت عنها قميصَها وأرخـت جدائلَ شعرِها ليسكُبَ عليها البدرُ فيضًا من بهائه.

مدينةٌ كمدينتي يافا تفتحُ للبحر صدرَهـا. تنثرُ أسرارَها حبـات لؤلؤ بين يديه. توشوشُه. تغمسُ أصابعَهـا في زرقتِه المترامية وتتنهدُ شبقًا للمسِ أمواجِه الرّعناء.

لفظني الفندقُ الصّغيرُ إلى البحرِ. رأيته يسترقُ إلـيَّ النّظرَ من بينِ أجفانِه الطّويلةِ وهو يستعدُّ للنّوم . أنفاسُـه حشرجةُ قطٍّ يُحتضر تغطيه سماءٌ داكنةٌ أفرغَت دموعَها قبيل العصر.

«كانت السّماء هناك خيمةً زرقـاءَ والبحرُ تتدافعُأمواجُه عصافيرَ مفردة، ترفرف محبورة. تلثمُ الرملَ والصخرَ ثمّ ترتدُ في رحلة العودة يسيلُ من عيونها دمـعُ الفراق.

كان أبي يقول: البحر حقلُ سنابلَ لونُه أزرق. كنتُ أعتقدُ أنّ أبي جدًّا قويّ. بإمكانه لو لقيَ الغول الّذي تقول أمّي إنّه يسجنُ الصّبايا في غرف مُغلقة؛ ويعلقهن مـن شعورهن، لو لقي أبي هذا الغول لصرعه؛ ولكن حين رأيت البحرَ أوّل مرّة كان مهيبا جليلا أكبرَ من أبي وأقوى وأبدع.

تراجعتُ عنه بخوف لذيذ. افترشتُ الشّاطئ أبني برملـه النّديّ بيتنَا من جديد. أضفتُ إليه حجرةً للقطّة وحجرةً للكلب وحجرةً لي ولإحسان ابنة خالي _تكفينا حجرة واحدة _ تركتُ الحوش واسعًا يطوي ذراعيه على مئات من رؤوس الماشية؛ كلَّما ذبحَ أبي كبشًا منها للضّيوف توالدَ كبشٌ آخر. اختلستُ إلى أبي النّظر، كان يجلسُ القرفصاءَ على صخرةٍ مُشرعة يُحدّقُ إلى البعيد؛ وطرفِ كوفيّته ينوسُ مع النّسيم.

خشيتُ أن يلتفتَ إليّ فجأةً ويفتحَ رأسي أو يفتحَ البيت ويرى إحسان معي؛ فيحلّ حزامَه الجلديّ ويضربني على قفاي كما فعل في الحقل حين اقتلعتُ نبتةَ برتقـال. ضربني يومَها بقسوة ولعنَ

أمي الّتي لم تعلّمني أن الأشجارَ تُزرع ولا تقلع. ظلَّ عابسا. رفض أن يمدّ يديه لتصبَّ أمّي عليهما الماء، ولكنّه في الصّباح قبّلني بحنوٍ بالـغ. تظاهـرتُ بالنّوم. التصقَت به أمّي أو هو التصق بها. سمعته يقول:

ـ هذا الولد شيطان، اقتلع نبتة برتقال. شيطـان ولكنّي أحبّه.

وعاد ليرسمَ على جبيني قبلةً حانيـة قبل أن يخطف الزوّادةَ ويمضي إلى الحقل».

ألقيتُ بعقب اللّفافة. رسمَ دائرةً حمراء قبل أن تطويه موجةً صغيرة عابرة. شرعتُ أرسمُ بقدمي خطوطًا متعرّجة على الرّمل أحدّد نهاياتِ البحر السّعيدة والمؤلمة. لا أحد على الشّاطئ، لا أحد. «بحرُ يافا كان يبسطُ ذراعيه مُرحّبا بالمصطافين من العصر إلى ما بعد منتصف اللّيل. يعزفُ لهم ألحانًا شجيّة وهم يشربون القهوة ويغنّون».

أشعلتُ لفافةَ أخرى. اللّيل كاد ينتصـف وأنا بدون عشاء. «أخذني أبي بين ذراعيه بعدما أتى على دجاجـة كاملة وثلاثة أرغفة. كان دخـانُ لفافته يطوفُ على وجهي حلقاتٍ زرقاء. دمعت عيناي. مسحَهما بمنديله الأبيض. دغدغني بشاربه الكثّ حتّى ضحكـتُ واغرورقت عيناي بالدّموع. مسحَهما لي ثانية وقال ربّما ليمسحَ منّي آثـارَحزامه الجلديّ:

- سآخذك يومَ الجمعة إلى البحـر.

نظرتُ إليه غيرَ مصدّق. هزّ رأسَه مؤكّدًا. قبّلته بفرح. لطالما ألححت عليه أن يصحبني إلى هناك ولكنّه في كلِّ مرّة يهزّ رأسَه رافضًا ويغمغمُ بحزن.

- البحر! لا... لا.

لم يقل لي سرَّ حزنه الدّائم كلّما ذكر البحرَ؛ ولكنّ أمّي أخبرتني أنّ جدّي قُتل في معركة المهاجرين اليهود، وغرق مع قاربه البحر. لم أرَ في هذا سببًا كافيًا لحرماني من الذّهاب إلى البحر الّذي أحبُّ؛ فأخي يذهب إليه ويعود منه بشباكٍ مُتخمة بالسّمك. وأبي أيضا يترك الحقلَ والزّرعَ ليقضي ليالي عدّة هناك.

أغفو وأمّي تنتظره بصمتٍ متفجّر أمام البيت... أستدلُّ على عودته من حفيف ثوبها وهي غاديةٌ رائحةٌ تجهّزُ له الإفطارَ وزوّادةً للنّهار. لا تفتأ تعاتبُه.

- إلى متى ستظلُّ تحرقُ أعصابي بغياباتك هذه؟

أتخيلُها تهزُّ رأسَها تُحدّق إليه بعينين مُحمرّتين لطول السّهر.

- أتظنّني لا أعرف لمَ تذهب كلَّ يوم والآخر إلى البحر؟

أسمعُه يردُّ عليها من بين أسنانه.

- هؤلاء المهاجرون الكلاب، كيف نتركهم يدنّسون بحرنا وينزلون أرضنا؟

تثرثر بكلام لا أفهمُه إلى أن يصرخَ بها أن تخرس، ثمّ يقسم أن لن يفطر؛ فتوقظني كي أتبَعه بالزوّادة الّتي تركها لغضبهِ في البيت».

هذا البحرُ التقّت أمواجُه في ملاءاتها ونزلت إلى القاع لتغفو وتنام هناك. لا قارب صيد ولا ضربة مجذاف واحدة تمزّق الصّمت وتذبح السّكون. «أفرغَ أخي شباكَه على المسطبة. حدّق أبي ساهما إلى الأسماك. تناولَ سمكات كبيرة. قلّبها بين يديه. تحسّسَها، شمّها. همس لها يسألُها إن كانت قد رأت أباه».

راح البدرُ ينسحبُ إلى ما وراء البنايات السّامقة فتتمدّد الظّلالُ على الرّمل شواهدَ قبورٍ منسيّة تثيرُ الوحشة والخوف. «مدينةٌ ينهزم فيها البدرُ قبلَ منتصف اللّيل قطعًا ليست كمدينتي .

بدرُ يافا كان فتيّا في ريعان شباب دائم. ينتصبُ فوق الشّاطئ العامر. يرشُّ بالفضّة دربَ العائدين إلى البيوت. يجلسُ معهم على الشرفات. يحتسي القهوةَ يُقبّل وجوه العذارى الحالمات. يعود إلى حيث أبي والرجالُ من حوله يتهامسون. يمتدُّ اللّيل الطريُّ. يظلُّ أبي ينحني عليّ يقبلني حتّى أغفو. أصحو على حفيف ثوب أمّي وهي تجهّز له الإفطار والزوّادةَ قبلَأن يمضي إلى الحقل».

هذه المدينة مهجورةٌ تماما. والشاطئُ كنسَته يدٌ عصبيّة مع المساء، أبحث فيه عن طفلٍ واحد يعتلي كتفيْ أبيه فلا أجد. «حملَني أبي

إلى البحر، قرفصَ على الصّخرة المُشرعة وظللتُ أنا على الشّاطئ أبني بيتنا من جديد. نترَ جسده فجأة. بان لي طويلا كمارد. قويّا بإمكانه أن يصرعَ الغول وينقذ الصّبايا من سجنه المظلم البغيض. أشار إليّ بيده. أخذ بإبطي وألصقني بصدره العريض. فرك أذني بلطف:

- ها قد جئتُ بك إلى البحر فلمَ تجلسُ بعيدا عنه؟

أجلسَني على كتفيه. بسط ذراعَه نحوَ البحرِ وقالَ بصوتٍ مُرتعش:

-انظر . انظر إلى البعيد. كلُّ هذا بحرُنا. انظر كم هو عظيم وبديع!

استطردَ وهو يضغطُ على ساقي بقسوةٍ آلمتني. هناك جدّك ينتظرنا. سأذهبُ إليه ذات يوم . لم أخبره بعد أنّك ولدت، ولكنّي سأذهب إليه وأخبره. اختلستُ إلى وجهه نظرةً عجلى، كان يتفجّر بالحزن. أرسلتُ عينيّ إلى عرض البحر.

كانت هناك عمارةٌ فخمةٌ تتصاعدُ منها غيماتٌ كثيفةٌ من الدخان، أبصرتُ شيخا بعمامة خضراءَ ولحيةٍ بيضاءَ يقبضُ بأسنانه على غليون مشتعل ويلوّح لي باسما.تعجّبت من وجود جدّي في عمارةٍ تتحرّك نحو الشّاطئ باطّراد؛ يسبقُها صفيرٌ محموم يتضخّم كلّما اقتربَت مُمزّقا أردية المساء . اختلط بالصّفير صياحُ الّذين على الشّاطئ. « باخرة، مهاجرون، باخرة، يهود، مهاجرون، إنجليز،

يهود، كلاب».أنزلني أبي عن كتفه بغلظة. زمجرَ من بين نواجذه «الكلاب الملاعين».

لما نظرتُ إليه كان مُتخشّبا تماما غاضبا أكثر بكثير من لحظة اكتشافه أنّي اقتلعتُ النّبتة، توقّعتُ أن يحلَّ حزامَه الجلديّ يضربني أو يسوطَ به الصخرةَ أو البحر؛ أو هذه العمارة الّتي علمت للتوّ أنّها باخرة. دفع يده إلى جيب قمبازه. تناول خنجرا معقوفا تكسّرت على نصله ظلالُ المساء. دمدم وهو ينظر إلى الخنجر بامتعاض. وقرف.

-أتخلّى عن عمري مقابلَ بندقية وإن تكن عثمانية.

تحوّلَ إلى وهم، إلى سراب. خلتُ لو أنّي مددتُ يدي إليه لن ألمسه. أدركتُ لحظتها لمَ ظلَّ يرجىءُ اصطحابي إلى البحر، ولمَ ظلّت أمّي تحاول إقناعي ألّا أذهب. توقّفت الباخرة تشهق. تدلّى لسانُها طويلًا غليظا. انساب عليه رجالٌ ونساء بوجوه غريبة. انطلقَت في التوّ بضعُ رصاصات. ماج الّذين على الشّاطىء تهزّهم ذراعٌ مجهولةٌ شرسة. ربت أبي على كتفي وقال بما يشبه الصّراخ:

- عد أنتَ إلى البيت.

قبل أن أستديرَ إليه كان قد تلاشى رغوةً أحدثتها موجةٌ عابرة. تركت الشّاطئ تدفعني أصواتٌ غاضبة تختلطُ بأزيز الرّصاص داعيةً بالموت والهلاك للمهاجرين.

لم تسألني أمّي عن أبي ، فقط عندما رأتني لوحدي هزّت رأسَها عدّة مرات ولاذت بالصّمت». انسحبت عن الشّاطئ المُعتم. عدت إلى الفندق الصّغير. ظللتُ بلا عشاء.

تحايلتُ على النّوم ولكنّه أدارَ لي ظهرَه بجفاء. «ليلةٌ مشهودةٌ غفوت في حضن أمّي وهي ما تزال تنتظرُ عودةَ أبي. استيقظت على جَلبةٍ اهتزّ لها البيتُ كأنّه محمولٌ على يدِ زلزال. رأيته محمولًا على أعناق الرّجال والخنجر في يده تخثّر عليه الدم. حدّقت أمّي إليه بذعرٍ. ماتت الصّرخةُ في فمها ولكنّها انتبهت إليَّ أخيرا؛ وقالت بهدوء:

- أخوك لم يعد من البحر بعد.

الحرباء

ترجّل الضّابط من سيّارة الجيب. لمعَت نجومُه السّداسيّة وتوهّجت بفعل الشّمس. وقف مُصالبًا ذراعية أمام صدرهِ يرقب معركةً بالهراواتِ والحجارة بين جنوده والمتظاهرين الرّافضين للاحتلال.

كزَّ على أسنانه لمّا رأى هؤلاء مستمّرين بالهتاف للوطن والمهاجمة بالأيدي والحجارة، هو ذاته كادَ يصيبُه حجرٌ أو أكثر مما اضطرّه أن يتخلّى عن مكانه ويغطّي رأسَه بيديه. أربد وجهه وشخرَ ونخرَ صائحا:

- اسحقوهم.

ظلّت عيناه تدوران عبر نظّارته الشّمسيّة مثلَ رقّاصِ ساعةٍ من خشبٍ عتيق. يلمحُ ثلّةً من الجنود تغطّي رؤوسها بأيديها من فوق الخوذاتِ متحاشيةً الدّخول في المعمعة.

يربدُ وجهُه أكثر. ينقضّ على واحد منهم. يجرّه من ياقته بعيدا عن مرمى الحجارة. يقفُ الجنديُّ أمامَه مجرَّدَ خوذةٍ صدئةٍ وكتلةٍ من ملابس الميدان. يصوّب إليه الضّابط من عينيه نارًا حارقة لا يلبثُ أن يطغى عليها الرّماد. يقول وابتسامةٌ ساخرةٌ تسيلُ من شدقيه:

- انظر إلى زملائك.

يلتفتُ إلى الوراء برهةً ثمّ يستديرُ مُسبلًا ذراعيه بلا حراك.

- قل لي، ماذا يفعلون؟

- يضربون العرب.

- بماذا يضبرونهم؟

- بالهراوات.

يقول والسّخرية تتفجرُ من عينيه.

- وأنتَ بماذا كانوا يضربونك؟

ينكّسُ رأسَه خزيًا. يصيحُ الضّابط مُغضبًا.

- لو كانت امرأةٌ في موضعك لدافعت عن نفسها.

يشيرُ إلى هراوةٍ في يده مزروعة بالدّبابيس.

- ما نفعُ هذه إن لم تحطّم بها رؤوس هؤلاء؟! سأكونُ سعيدًا لو أنّها الآن تقطرُ بالدم.

يصرخُ وهو يدفعُها إليه بعنف.

- حاذر كيلا يخلّصوها منك ويضربوك بها.

ثمّ وهو يصعد إلى السيّارة.

- إن عدتُ كرّةً أخرى ووجدتها بلا دماء قسمًا سألوّثها بدمك.

تتحرّكُ السيّارةُ ببطءٍ يودّعها بعينينِ ذاهلتين. يراها تحيد عن الطّريق مسرعةً فجأة. يسمعُ صرخةً مدوّية.

- اقتله.

يقفزُإلى الوراء بلا إرادة. يشاهدُ كلبًا ممدّدًا على الرّصيف تنزفُ منه الدّماء. يسعدُه أن يفرّغ الضّابط غيظَـه على هذه الصّورة.يرسلُ ببصرهِ إلى الجنود. لا يرى غيرهراواتٍ تعلو وتهبط، وإلّا زخاتٍ من الحجارة تتساقط فوق الرؤوس.

الهتافاتُ الغاضبةُ تسقط في أذنيه رعودًا مُجلجِلَة. وعيدُ الضّابط يجتثُّ قلبَه من الجذور. تطفحُ عيناه بالذّعر.ينتشرُ من رأسه وحتى قدميه. يفتّشُ عن ركن قصيّ يخفيه.

تقعُ عيناه على جثّة الكلب. تومضُ في رأسه فكرة. ينفّذها بلهفةِ الغريق. يتقدّم نحو الكلب. يغمسُ الهراوةَ بالدّمـاء السّاخنة. يتنهّدُ بارتياح، يسمعُ هديرَ سيّارة قادمة.

يشدُّ من قامته. تتوقّفُ السيّارة أمامَه مباشرة. يترجّلُ منها ثلاثةُ رجال على صدورهم شارات لم يفهمها. تخيفهُ نظراتُهـــم الموزّعة بين رأس الهراوة ورأس الكلب. يهزّون رؤوسَهم بأسى واشمئزاز. يستلّون من جيوبهم بطاقات صغيرة، يضعونها أمام عينيه. بات عاجزًا عن الرّؤية.

ـ جمعيّةُ الرّفق بالحيوان.

يشيرُ بيدِه إلى المتظاهرين.

ـ لم أضرب أيًّا منهم.

يقبضُ أحدُهم على ذراعه. يصيحُ مشيرًا إلى جثّة الكلب.

ـ رأيناك تجهزُ على هذا المسكين.

يتراجعُ بخطى متعثّرة. تسقطُ الهراوةُ من يده. يسارعون إلى التقاطها. يدفعونها إلى يده ويدفعون به إلى قلب المعمعة؛ قبل أن يمضوا ترافقُهم جثّةُ الكلب.

شيءٌ ما يهبطُ حادًّا

أفاقَ على سكونٍ حادٍّ ينغرسُ في الأحشاء منه. أدرك أن صمتَه قد طال. بل أنّه لم ينطـق طوالَ الجلسة ولو بحرف واحد. وفي اللحظة الّتي أحسَّ أنَّ من واجبه أن يقولَ شيئا ما؛ انهارَ عليه الصّمت كتلةً واحدة. «فهو يعترفُ بأنّه مذنب. إحساسُه بالذّنب هو ما قاده اللّيلةَ إلى مجلسهم بعد انقطاعٍ عنه مدّة طويلة».

تركهم يقطّعونَ لحمَه شرائحَ بألسنةٍ حِداد. اكتفى بهزّ رأسه أسفًا وهم يذكّرونه بما كانوا قد نبّهوه إليه من قبل؛ فأعرضَ عنهم ووضعَ أموالَه في أحدِ بنوك تل أبيب، ومن ثمّ تزوّج فتاةً مراهقة من هناك.

كان رأسُه قد تدلّى بين ركبتيه، رفعه ببطء، لامسَت نظراتُه العيونَ المترقّبة. كلُّ العيونِ تتطلّع إليه تستنطقه.

ـ هه... ما رأيك؟

لا يدري النقطة الحاسمة الّتي وصلوا إليها والّتي تتطلّبُ منه الرّأي، فقد أفلت منه حبلُ الحديث عندما بدأوا يستعرضونَ الكارثة الّتي حلّت بالبلدة على يديه.

كان يقضي النّهار في متجره؛ وفي المساء يذهبُ إلى المضافة يتحدّثُ مع الرّجال في أعمال العنفِ الّتي انتشرت بعد الاحتلال،

وكذلك يتحدّث في شؤون الغرس والجنـي وتربيةِ الصّغار، وفي عمليّة الانتظار في محطّة الباصـات لينتقلوا من هناك إلى المصانع في تل أبيـب.

كان يلاحظُ الحرارةَ الّتي يتحدّث بها الرّجال عن أعمال العنف. كان يستهجنُ مثلَ هذه الأعمال ويصفها بالطّيش والتّهور. «الانخراط في أعمال كهذه تترتّب عليه أمور كثيرة، التّفتيش والضّرب، والإهانة، والإذلال، تطالُ كلّها الأبرياءَ خاصّة».

كان يتمنّى لهذه البلدة أن تظلَّ وادعة، تصفعُها عيونُ الجند عن بعد، وحين كانوا يدخلون متجرَه تحلو لهم بعضُ السّلع، فيقدّمها لهم كهدايا فيرفضونها قائلين:

ـ نحن لا نأخذ شيئا بالمجّان.

ويشترونها بالثّمن الّذي يطلبُه.

ـالرّبح إله التّاجر.

في شهور قليلة زاد متجرُه بمقدار الضعف. ما عرف مثل هذه الأرباح من قبل. يستطيعُ أن يدفع عن كلِّ كلمةٍ ينطقُ بها ليرةً دون أن يلحقَ به الفقر. والنّاس من حوله ازداد شراؤهم بما يعني الرّغدَ لهم والرّبحَ له. لم ترفضه فتاةٌ دون العشرين، بل رحّبت به.

ما ظنَّ يومًا أن ستحفل أيامُ الشّيخوخة بمثل هذه الفتنة وهذا الشّباب. عمل بنصيحة أحدِ الضبّاط حين قال وهو يحتوي المتجـربنظرة شرهة:

ـ أهلُ بلدتك يحسدونك بالتّأكيد.

ولمّا استفسرَ بضحكة موافقة استطرد هذا قائلا:

ـ الحسد قد يدفعُهم إلى ارتكاب جريمة سرقة على الأقلّ، ولكنّ أموالك ستكون في مأمن من الأطماع لو أنت وضعتها في بنك ذي سمعة طيّبة.

ثمّ وهو خارج:

ـ بنوك تل أبيب تتمتّع بمثل هذه السّمعة.

فكّر في كلام الضّابط. وجدَه معقولا. وحين وافى الرّجال في المضافة أحسَّ بنظراتهم تنغرسُ فيه.قضى ليلة رهيبةً بانتظار الغد.لم يشعر بالاطمئنـــان إلّا عندما احتوته المدينةُ الكبيرة. دخل أحد البنوك.

أوّل شيء رآه هناك فتاة في غاية الجمال. حين أعلمها بالغرض الّذي جاء من أجله افترَّ ثغرُها عن ابتسامة أرجعته ثلاثين عاما إلى الوراء، وحين قالت إنّه رجلٌ عاقل متّزن وهي تكره الطّيش والتهوّر؛أقسم أنّه في تلك اللّحظـة فقط عرف الحياة.

رأى يدها تسبحُ فوق الحاجز الرخامي حتّى استقرّت بين يديه حيث تتمدّدُ الأوراق من كلّ لون. تعاقبت أنفاسُه حتّى غدت لهاثًا. قال وهو يمرّر حواف الأوراق على أصابعها الناعمة:

ـ ستكون هذه كلّها لك ولي إذا.....

ابتلعَ ريقَه السّائب. ضحكت حتّى رأى رجرجة نهديها من فوقِ الحاجز، تخيّل أنّه يقبضُ على كلٍّ منهما بيد. تصبّبَ العرقُ على جبينه. ناولتهُ منديلًا طُرِّزَ على ركنٍ منه حرفُ«ك». قالت:

ـ هديّة من كلوديا.

أخذ يقلّبه بين يديه، تسلّلت إلى منخريه رائحةُ عطر نفّاذة ، زاد انهمالُ العرق على جبينه، سقطت بضـعُ قطرات على الحاجز الرّخامي. مسحها بكفّه ثمّ طـوى المنديلَ ووضعه في جيبه.

ـ لم يُخلق مثلُ هذا المنديل لمسح العرق.

قالت وهي ترشقه بنظرة إغراء قاتلة.

ـ أحبُّ طيشَك يا هذا.

ـ صابر... اسمي صابر.

تركته وهي تقول غامزة:

- سنرى مدى تطابق اسمك مع هيكل الواقع.

قال في نفسه «إنّها فتاة ذكيّة غاصت إلى أعماقه فكشفَت لهفته». وحين خرج يجرُّ رجليه جرًّا؛ أيقنَ أنّه سيعود في أقرب فرصة، فأيّامه القادمة لن يكون لها معنى دون أن يضمَّ ذلك الجسدَ المُلتف، ولم تكن الورقة الّتي خرجَ بها لتعني شيئا له. الرّصيدُ الحقيقيّ تركه وراءه في البنـك، يتحرّك على ساقين لم يرهما ولكنّه يحدسُ أنّهما جميلتان.

كانت مشاعره أثقلَ من أن يحتملَها وحـده. هرعَ إلى المضافة. كان في نيّته أن يقولَ كلَّ شيء صادفه في يومه، ويلمّح إلى قصده. تعجَّب أنّهم بدأوه الحديث وعنّفوه على إيداعه النّقودَ هنالك. وزادوا بذكرهم أوصافَ الفتاةِ الّتي استلمت منه النّقود.

تعجّب غاضبًا من أين عرفوا وهو لم يخبر أحدًا بنيّته؟! ازداد يقينُه أنّهم كانوا يبيّتون نيةَ سوءٍ له.

زعق بهستيريّة:

- أنا حر. أضع مالي أينما شئت.

اطمأن إلى السّكون الّذي ران عليهم فـواصلَ الزّعيق.

- البنوك هناك أكثر ضمانا لحفظ المال.

رآهم يتلفّتون إلى بعضهم بعضا قبـل أن ينبري أحدُهم قائلًا:

ـ هذا كلام لم يقله أحدٌ منّا، تذكّر ذلك.

عزّ عليهِ أن يرضخَ للتّهديد. قال وشارباه يتراقصان غيظًا.

ـ العملُ في مصانعهم هو من نوع إيداع المالِ في بنوكهم. لم لايرى الواحدُ منكم السنامَ في ظهره؟

انبرى أحدهم إلى القول بهدوء.

ـ نحن لا نذهب إلى تل أبيب لنعملَ في مصانعها فقط.

ضحك بسخرية ثمّ خرج من عندهم ويده تقبضُ على المنديل المطرّز. ظلَّ يضغطُ بأعصابه على عنقِ اللّيل حتّى أزهق أنفاسَه بطلوع الصّباح.

دخلَ البلدةَ في سيارة فارهة. أوصى السّائقَ بأن يطلق الزّامور مُتّصلًا وهو يحتضن الفتاةَ بابتسامة حبّ كبيرة. نثرَالحلويات أمام الصّغار الذين تجمّعوا فلم يمد أحدٌ منهم يده. ضحك باستخفاف. فسَّرَت كلوديا هذه الظّاهرة «لؤمُ الصغار من حقد الكبار». بصقَ عليهم ولعنَ آباءهم.

زادته اللّيلة الأولى إيمانًا أن وحده العاقل في هذه البلدة، لا يحاربُ طواحينَ الهواء كما يفعل أهلها. ووصلت متعتُه ذروتها وهو يحرّرُ الرّصيدَ باسمها. قالت.

- سأتولّى شؤون المتجر وسترى الأرباح.

لم يشك في أنّ معجزاتٍ كبيرةً ستحدثُ على يديها. المتجرُ يتضخّم بشكل مفرط. بضائعُ جديدة لم يرها من قبل تضاف إليه. السّاحة الّتي تتقدّمه تغصُّ بمقاعدَ ثابتةٍ يحتلّها الجنودُ طيلةَ النّهار، وساعاتٍ طويلة من اللّيل. السيّارات العسكريّة تحيطُ بالسّاحة كالسّوار؛ تتقيّأ من فيها على المقاعد. الكثيرون من شباب البلدة المراهقين يحومون حولَ المكان بحذر كأنّما يتعلّمون المشي.

بعضهم تجرّأ واختلط بالجنود وجالسهم. تبعهم الباقون. يشربون من كأس واحدة. تضاحكهم كلوديا فيضحكون ضحكة واحدة فيها بُحّة الخمر. هو من ينقل الزجاجاتِ إلى المناضد. يدور طوالَ الوقت، يرى السّاحة تضافُ إليها حواجزُ خشبيّة وستائر.

سأل كلوديا عن الحكمة من ذلك فقالت ضاحكة:

- هي للضبّاط، فليس من اللاّئق أن يختلطوا بالجنود وهم سكارى.

ضحك من قلّة مداركه وهنّأها على حسابِها شواردَ الأمور. اشتكى من التّعب لكثرةِ الزّبائن واتّساع المكان أكثر من طاقته.ربتت كلوديا على ظهره قائلة:

- أعرف، لذا أوصيتُ على باقةٍ من الحور العين يحملنَ الزجاجاتِ إلى المناضد.

السّاحة كلُّها لفّتها بالسّتائر وحجبتها عن الفضاء. شيءٌ ما استيقظ في نفسه وهو يرى شبابَ البلدة لا يعودون إلـى بيوتهم ... قال لكلوديا:

ـ مستقبلُ هؤلاء الشّباب يضيع.

ضربته على صدره بلطف وقالت بدلال.

- يكفيهم الحاضر الثريّ.

لاحظ أنّها تودّع بعينيها واحدا من الشّباب. لمح في يده منديلا كذلك الّذي أعطته إيّاه في البنك. تذكّر أنّه لم يرَ المنديلَ منذ اللّيلة الأولى.رأى ذاتَه مُكبّرة. شيء ماهبط حادا واستقرَّ في قلبه. رمى كلوديا بنظرة ناريّة وترك المكان إلــى المضافة.

قال أحد الرّجال: لا يمكن أن يستمرّ الوضع على هذي الحال.

رأى عيونَ الجميع تحمّله الوزر، تستنطقُه.

ـ هه... ما رأيك؟

لم يشعر أنّه بحاجة إلى سؤالهم عمّا فاته من كلام. قال وهو ينهض.

- ستسمعون في الغد ما يسرّكم.

وخرجَ مسرعًا.

دورةُ الزّمنِ الضّائع

كما توقّع بالضبط قبلَ أن يضعَ أيٌّ من الضّيوف أوّل لقمةٍ في فمه؛ انبرَت أمّه تعدّد مآثرَ أجدادها. يدهشُه نسيانُها ماحلَّ بهم من أحداثٍ مزلزلة ونكباتٍ أجبرتهم على النّزوح مرّتين. لا تفتأ تحكي عن أناس لا يتوفّر شاهدٌ واحدٌ على صحّـة أخبارهم. تعلمُ حقَّ العلم كم يضايقُه نبشُها التّراب عن جثثٍ متآكلةٍ؛ وهم مذ تركوا أرضَهم وبيتَهم يعيشون حياةً أفضل منها الموت.

مرّة واحدةً نضحَ لها ما في نفسه من قرف وشكّ. قبضت على قلبها وانحبست أنفاسُها وأحسّت بالاختناق. وبّخه أبوه، هو أيضا له آباء وأجداد يسعدُه ذكرُ ما صنعوه من بطولات خارقة.

ينسى ما حلَّ بهم من نكبات مدمّرة، وأنّهم نزحوا مرّتين. يدفنُ أشجانَه بالحديث عن أناس تجثمُ عليهم أطنانٌ من تراب. «مستحيل أن ينسى أبوه ما حدث».

حملَه في ليلةٍ مظلمة وأمّه تركضُ من خلفه مفزوعة. ظلَّ يرفسُ صدرَ أبيه محتجًّا على تركه الفراشَ الدافئ وبيّارةَ البرتقال؛والبيتَ الكبيرَ ذا السّاحة الواسعة حيث ثغا وحبا ولعب مع الصّغار. وضعاه في خيمة على شكل عرنوس الذرة تهتزُّ متألمةً كلّما لكزتها الرّيح. ظلّ أبوه يهرب من سؤال يلحّ عليه..

ـ لم لا نعود إلى بيتنا يا أبي؟

أمّه أيضًا ظلّت تخفي وجهها بيديها كلّما سألها عن الدّجاجِ وأبراج الحمام والطّيور البريّة الّتي تعيش في السّقف المُقبّب. أمّا البرتقالُ فانقضت مدةٌ طويلةٌ دون أن يرى منه حبّة واحدةً يحاول عبثًا نسيانَه.

وحين بلغ اشتياقُه إليه حافّة الكفر؛ قطَع أبوه على نفسه وعدًا أن يأتي له به. عادَ آخر النّهار بمظروف فيه حبّاتٌ صفراءُ كابية، كلُّ واحدة منها منطوية على نفسها في خجلِ عذراء بلا تجارب. شعرَ أنّـه لو مدَّ يـده سيصيبها الشّلل. عنّفه أبوه.

ـ أليسَ هذا ما طلبت؟ أم تراك تظنُّ معي فائضًا من نقود؟

لم يره بهذا الوجه من قبل. صوتُه كان هناك يقطرُ حنانا عذبًا، والنّقود الّتي كان يلعب بها الطرّة والنّقش في عدد نجومِ سماءٍ بلا سحب؛ فلمَ كلُّ هذا الغضب؟

إنّه يكره هذه الحبّات الشاحبة ويشتاق أن يعودَ إلى الأشجار الوارفة، يتسلّقُها، يهزّها فتُسقِطَ له حبّاتٍ مستديرةً لامعةً يقطرُ منها دم أحمر. يكره هذه الخيمة ويهوى العودة إلى البيت يصرخُ في جنباتِه فتتردّدُ أصواتٌ كثيرة يركضُ خلفَها كي يمسكَ بها فتهرب. يظلُّ يصرخُ وتظلُّ تهربُ منه.

لماذا يغضبُ منه أبوه بلا سبب؟ وأمّه أيضا تعبسُ وتدورُ عيناها كطائر ذبيح كلّما أتى على ذكر البيت ذي الشّرفة المزروعة بالزّهر. كان يرقبُ أكمامَه تتفتّح ثمّ وهي تموتُ يابسة. منذ

استوطن معهما تلك الخيمة وحتّى بعد أن انتقلا به إلى بيتٍ ذي ثلاث غرف طينيّة وهما يلعنان (أيّار).

كرِهَ (أيّار) هذا وحمّله مسؤوليّةَ تركِه البيّارة والبيتِ الكبير والسّاحة الواسعة. بحثَ عنه طويلا لم يجده، لو صادفَه لقتله. لم يعرف أنّه ليس رجلا يلبسُ قبّعةً ويمشي على اثنتين كالخواجات إلّا بعد أن أدخلوه المدرسة، سُجِنَ فيها دهرًا إلى أن جاءَ أيّار فأطلقَ سراحَه ومع هذا لم يستطع أن يحبّه أبدًا.

الطّعامُ يتناثرُ من أفواه الضّيوف رذاذًا مزعجا. يتسلّمون رايةَ الحديثِ من أمّه وأبيه. هم أيضا لهم آباءٌ وأجدادٌ ولهم مآثرُ تستحقُ الذّكر. الأمواتُ يقتحمون المكان. يتزاحمونَ على المائدة. كلّهم أعجبوا بمقعده. تخلّ لهم عنه وانطلق إلى غرفته الصّفيح. الكتبُ مزروعةٌ في كلِّ شبر؛ على الطّاولة والرّفوف وكذا الخزانة الخشبيّة حُبلى بها.

جمعُ الكتب هوايةٌ قديمةٌ يقطعُ بها الوقت ويقتل شكًّا يعذبه. « كيف انتقلَ فرسانُ البادية من الخيام إلى القصور؛ وكيف نزحَ أحفادُ هؤلاء من تلكِ القصورِإلى الخيام؟» طالما نالَ جائزةَ أحسنِ قارئ، كانت المدرسةُ تفاخرُ به، تضعهُ على صدرها وساما يلمع. فيها شهد كيفية طغيانِ ماضٍ مشرقٍ على حاضر مرير. أستاذ التّاريخ يردّدُ مزهوا.

ـ كانت ذي قار بحقّ أوّل معركةٍ انتصف فيها العرب من العجم.

يحكي بشغفٍ عن بطولاتٍ خارقة سطّرها الأجدادُ في اليرموك وحطّين وعين جالوت. كان يرى هؤلاء بعينيه يركبون الخيل، يثيرون النّقعَ ويمتشقون الرّماح والسّيوف.أمّه على براعتها يعجزُها أن تأتي بمثل هذا الكلام المنمّق الّذي أشرف على بنائه أكثر من مـهنـدسٍ بارع. لا تقول مثل الكتـب والأستاذ.

ـ تاريخنا مرصّعٌ بمواقف البطولة وأشرف التّضحيات.

لا ينكرُأنّه كان ينتفخُ من قبل زهوًا بتلك الأسمـاء اللاّمعة الّتي صنعت ذلك التّاريخ. يحفظها ويردّدُها. يتمنّى لو أنها ما تزال حيّة ترى وتسمع كيف يخبّىء الحاضرُ وجهَـه في عباءةِ الماضي كطفلٍ كسيح.

مرارَا سمعَ أمَه تقولُ إنّ أمّها كانت أعظم طاهية. الحرّاثون كانوا يشمّون رائحةَ طعامها على بعد ميلين في الحقول؛ وأمّه لا تفتأ تهرشُ رأسها وترتبك حين تسلق بيضة.

كلُّ ما نقلته الكتبُ وما اعتادَ سماعَه في البيت والمدرسة يمرُّ على أنفاسه كابوسًا مزعجا. يفتّته، يبعثره أشلاء. بالكاد يلتقط أنفاسَه ويعثرُ على نفسه الشّاردة. النّزوح مرّتين يقتلعُ العينين من الوجه ويرميهما خلفَ الرّأس. يجعله يرى الأشياء من حوله مقلوبةً تتدحرجُ بلا نظام.

أيّار من قبلُ لم يقص أجنحةَ الأمل. ظلَّ يتحدّاه بأن سيعودَ للبيت والبرتقال والسّاحة الواسعة يُعلّم فيها صغارَه الحبو واللّعب. قال له وهو ينتزعه من روزنامة الحائط.

ـ وداعًا وإلى الأبد فقد جاء حزيران.

يسمعُ الإذاعة والشّارع والأحلام العذبة تقول أن سيأتي أيارٌ آخرُ بلا وجهٍ كَدِر؛ وبلا أظافر أو أنياب، سيحنّطُه حيوانًا مُنقرضا من العصر الحجريّ. فقد جاء حزيران، ركلَ أيّار ومضى يتبعثرُ على صدرِ عام جديد وعمر جديد.

سيعودُ إلى البيت الكبير وإلى بيّارة البرتقال والسّاحة الواسّعة يرقب الصّغار يلعبون بعدما تخطّى هو مرحلةَ اللّعب البريء. آمالُه أضخم من أن يتّسع لها جلده.

أفرغَها في أذن أمّه وأبيه. انطلقت أمّه تثرثرُ عن مآثر أجدادها. أرخى لها أذنيه. شعرَ بكلامِها يتغلغلُ في صدره؛ يدفعُه إلى الرّقص والغناء والكتب الّتي طالما رشقَها عينُ التوجّس والشك، احتضنها وقبّلها، فهي لا تقول غيرَ الصّدق فها هم الأحفادُ يصنعون ما صنع قبلهم الأجداد. يُشبعون سمكَ البحرَ ممّن خدعوا الأنبياءَ أكثرَ من مرّة.

تحدّث مزهوًا عن ذي قار وحطّين وعين جالوت. ضغطَت أمّه على أذنه ضاحكة.

ـ ها أنت ذا أيضا لكَ أجدادٌ تفاخرُ بهم!

ضحك أبوه وبرمَ شاربيه، تماما كما كان يفعل حين تأتيه أمّه بالغداء؛ فيترك المحراثَ ويُسرّح البغلَ ويجلسُ تحت شجرة برتقال كبيرة تستعصي على الشّمس فلا تنفذ منها.

الإذاعاتُ تنزفُ كلامًا مؤسيًا تزاحمُه الدّموع. الشّوارعُ تزحفُ عليها أجسادٌ منهوكة يستوطنُها اليأس. ودَّ لو تزهقُ روحُه في التوّ واللّحظة قبل أن يغادرَ البيتَ ذا الغرف الطينيّة الثلاث، فتستقبلُه خيمةٌ شبيهة برأس البوم، ينتقلُ منها إلى حجرتين من الصّفيح.

كلُّ ما حمله معه كانَ ذكرياتٍ حلوةً مرّة وكتبًا محشوّةٌ بمعارك الأجداد وانتصاراتهم الباهرة. يغلقُ بابَ حجرة الصّفيح عليه. تزحفُ عليه أرتالُ الكتب. يخرُجُ منها رجالٌ يركبون الخيل يثيرونَ بها النّقعَ ويمتشّقون الرّماحَ والسّيوف. تلمعُ في وجههِ نصالٌ حادّة ويلفّه غبارلا يسدُّ عليهِ منافذ الشّمس والهواء. يزايلُ مكانَه ويركضُ خلفَ الخيول.... ويظلُّ يركض.